﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السادسة. العدد الثالث والثلاثون: رمضان/شوال 1433هـ الموافق لـ سبتمبر/أكتوبر 2012م



عزة المسلمين
بين الأمس واليوم



الأجوبة المنهجية على الأسئلة الجزائرية

د. محمد بن هادي المدخلي

لمحات من حياة الشيخ عمر العرباوي رحمه الله

مهدي جيدال





إعلام الأبي بكيفية نصرة النبي صلى الله عليه وسلم

عبد المالك بن مبروك



تقدير العالم وتقديس الحق

أحمد معمر

في حكم التداوي عند طبيب نفسي

أ.د. محمد علي فركوس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمۡرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

افتتاحية



لذة الطاعة

مدير المجلة

إنَّ الانغماس في الدُّنيا والاشتغال بمظاهرها والاهتمام الزَّائد بمتاعها يحجُب العبدَ عن أعظم نعيم وأكبر فوز يمكنُ تحقيقُه في هذه الحياة، وهو التَّلذُّذ بالطَّاعات والعبادات، فكثيرٌ منَّا اليوم تجدُه مُقبلًا على عبادات متنوِّعة من صلاة وصيام وصدقة وتلاوة للقرآن وبرٍّ بوالديه ونحوها، لكن إذا فتَّشت في حقيقة أمره ألفيتَه يُقبل على هذه الطَّاعات على وجه الإلف والعادة، وقد يصلُ به الحال إلى أن يأتي بها على وجه السَّآمة والملَل والتَّثاقل، وسببُ هذا الحال قلَّةُ العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته وبشرعه وأحكامه، وإلاَّ مَن عرفَ الله تعالى حقَّ المعرفة عظُمَ أمرُ الله سبحانه في نفسه، فأينَعت شجرة الإيمان واليَقين في فُؤاده، فتتحوَّل عندَه أوقاتُ العبادة والطَّاعة إلى أفضل وأحلى أوقات العُمر، ويجد فيها لذَّةً لا تُدانيها لذَّةٌ من لذائذ الحياة ومُتَعها، لذا قال سيِّد العارفين بالله وبأمره ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، أي أنَّ غاية لذَّته وذروةَ سعادته في عبادة الصَّلاة الَّتي يجد فيها راحةَ نفسه واطمئنانَ قلبه، فيفزَعُ إليها عند الشَّدائد والمضايق.

وهذا النَّوع من لذَّات القلوب والنُّفوس ذاقه السَّالكون دربَ نبيِّهم ﷺ والمتمسِّكون بهديه وسنَّته، فجاهدوا أنفسَهم وثابروا وصابروا في ميدان الطَّاعة حتَّى ذاقوا حلاوتَها، فلمَّا ذاقوها طلبُوا المزيد بزيادة الطَّاعة، فكلَّما ازدادت عبادتُهم زادت لذَّتهم وفرحتُهم؛ فاجتهدوا في العبادة ليزدادوا لذَّةً إلى لذَّتهم؛ ولن يذوقَ ما ذاقوا إلاَّ مَن سلَكَ سبيلَهم، ومَن ذاقَ عرف؛ حتَّى قال أحدُهم: «إنِّي أدخُل الصَّلاةَ فأحملُ همَّ خروجي منهَا، ويضيقُ صدري إذا عرفتُ أنِّي خارجٌ منها»؛ فمَن صار قرَّة عينه في شيءٍ فإنَّه يودُّ ألاَّ يُفارقَه ولا يخرُج منه لحلاوته.

وفي «مدارج السَّالكين» (2/68): «سمعتُ شيخَ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله يقول: «إذا لَم تَجد للعَمل حلاوةً في قلبكَ وانشراحًا؛ فاتَّهمه، فإنَّ الرَّبَّ تَعالى شكورٌ».

قال ابن القيِّم معلِّقًا: «يعني أنَّه لابدَّ أن يُثيب العاملَ على عمَله في الدُّنيا من حلاوة يجدُها في قلبه، وقوَّة انشراح، وقرَّة عَيْن؛ فحيثُ لم يجدْ ذلكَ فعَمَلُه مدخُول».

فإذا فَقدتَ لذَّة الطَّاعة، فلا توجِّه التُّهمة إلاَّ إلى قَلبك؛ فالمطلوب عمارتُه بالإيمان، وحبِّ الله، ومجاهدة النَّفس ومُصابرتها وترويضها على الطَّاعات والنَّوافل والإكثار منها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [سورة العنكبوت].



مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

د/رضا بوشامة

التصميم والإخراج الفني:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:

مطبعة الديوان

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

(النقال) (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):

(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

في هذا العدد

مسائل منهجية

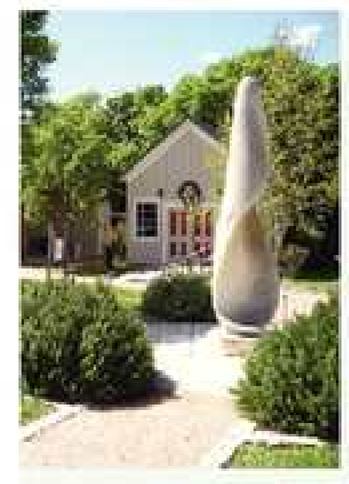
الأجوبة العلمية على الأسئلة الجزائرية

في واحة اللغة والأدب

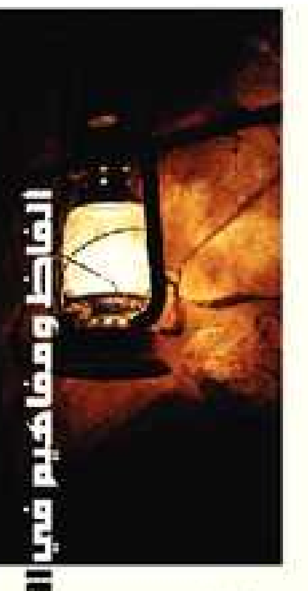
إعلام الأبيّ بكيفيّة نصرة النَّبي ﷺ

. نونية السُّلماني .

العدد السابق







قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الافتتاحية

عزّة المسلمين

بيـن الأمـس واليــوم

التحرير

إنَّ الله تعالى كتب العزَّة والرِّفعة لأهل الإيمان والتَّقوى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [سورة المنافقون]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [سورة آل عمران]، وعزَّة المؤمن تُستمدُّ من اعتصامه بحبل الله المتين واتِّباعه لسنَّة نبيِّه الكريم ﷺ، واعتزازه بلُغته وأصالته، وبراءته منَ الكُفر وأهله، قال أميرُ المؤمنين عُمَر ابن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّا كنَّا أذلَّ قوم فأعزَّنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله» [«الصَّحيحة» (80/1)]، وبقدر ما يفوتُ العَبد من شُعَب الإيمان والعمل الصَّالح، والتَّوكُّل على الله بقدر ما يحرمُ منَ العزَّة والقوَّة والرِّفعة.

ولمَّا كانَ سلفُنا الصَّالح ـ وعلى رأسهم الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ـ مستمسكين بالوحي مجتَمعين على هذا الدِّين، يجاهدونَ في الله حقَّ جهاده، أعزَّهم الله وأعلى قدرَهُم ورفَع ذكرَهم ونصرَهم على عدوِّهم، ومكَّن لهم في الأرض، واستخلَفَهم فيها، ففتَحُوها مشرقًا ومغربًا، وملأوها نورًا وعدلا ورحمَة، ودخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا لمَّا رأوْا رحمةَ الإسلام وعدلَه وحكمتَه وقوَّته، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٥٥﴾ [سورة النور].

وصار أعداؤهم منَ اليهود والنَّصارى وغيرهم صاغرين مقهورين، الذِّلَّةُ عليهم مضروبة والجِزيةُ عليهم مفروضة؛ ومن أمثلة ذلك: ما وقَع ليهود بني النَّضير، فقَد كان بينَهم وبينَ رسول الله ﷺ عهودٌ ومواثيق فخانُوها ونقضُوها ـ كما هي عادتهم ـ، وهمُّوا بقتله ﷺ، فسلَّط الله عليهم رسوله والمؤمنين.

قالت أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: «...حاصَرَهم رسولُ الله ﷺ حتَّى نزلوا على الجَلاء، وعلى أنَّ لهم ما أقلَّت الإبلُ من الأمْتعَة وَالأمْوال إلاَّ الحَلْقَة، يَعْني السِّلاحَ» [أخرجه الحاكم (483/2) وصحَّحه ووافقه الذَّهبي، والألباني في «تخريج أحاديث فقه السيرة» (ص303)].

جرَّدهم رسول الله ﷺ من سلاحهم، وخرجوا من المدينة أصفار الأيدي، ولم يستَطيعوا فعلَ شيء، بل استَسلموا وانقادوا وهم كارهون، فخرج بعضُهم إلى الشَّام وبعضُهم إلى خيبر، ثمَّ طردهم أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه من جزيرة العرب، وتفرَّقوا في الأرض شَذَرَ مَذَرَ، ومُزِّقوا كلَّ ممزَّق.

ووضَع عُمَر رضي الله عنه لأهل الذِّمَّة شروطا تلقَّتها الأمَّة بالقَبول، وعمل بها الخُلفاء من بعده، وكلُّها دلالة على قوَّة الإسلام وعلوِّ شأنه وعزَّة أهله.

ولم يزل المسلمون بعد ذلك في علوٍّ وعزَّة وتمكين ورفعة، يفتحون القلوب والبلاد، ويُخرجُون النَّاس من الظُّلمات إلى النُّور، ففتحوا العراقَ والشَّامَ ومصرَ والمغربَ وبلادَ السِّند والأندلس، ونشروا التَّوحيد والإسلام والسُّنَّة وحكمُوا بالحقِّ والعدل والرَّحمة، وأمروا بالمعروف ونهوْا عن المنكر وظلُّوا كذلكَ أزمنةً مديدة، وقرونًا عديدةً، تحقيقًا وتنفيذًا لوعد الله في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ۝٤١﴾ [سورة الحج].

ولكن لمَّا لم يثبتوا على ذلك وغيَّروا غيَّر الله عليهم، فصاروا إلى ضَعف وهوان، ومُنُوا بهزيمة وخذلان، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٥٣﴾ [سورة الأنفال]، فمن عدله تعالى وحكمته، أنَّه لا يغيِّر نعمةً أنعمَها على عبده إلاَّ بسبب ذنب اقترفَه، قال الإمام البغوي في «تفسيره» (368/3): «أراد: أنَّ الله تعالى لا يغيِّر ما أنعمَ على قوم حتَّى يغيِّروا هُم ما بهم، بالكُفران وترك الشُّكر، فإذا

فعَلُوا ذلكَ غيَّرَ اللهُ ما بهم، فسَلَبهم النِّعمة»، فإذا غيَّروا التَّوحيدَ بالشِّرك، والسُّنَّةَ بالبدعة، وعملوا بالمعاصي ولم يشكروا نعمةَ ربِّهم، وأضاعوا الصَّلاة واتَّبعوا الشَّهوات، عاقَبهم اللهُ وخذلَهم وحَرمَهم التَّمكين والعزَّة والنِّعم، وسلَّط عليهم العدوَّ والذِّلةَ والنِّقَم، جزاءً بما كسَبت أيديهم، قال جلَّ وعلا: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79]، وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]، وقال رسولُ الله ﷺ: «وَجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على مَن خالَف أَمْري» [رواه أحمد (5114)]، ولكلِّ مخالفٍ لأمره ﷺ من أهل الكفر والبدع والفُجور كِفلٌ من الذِّلَّة بحسب المخالفة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]، رأى أيُّوبُ السَّختيانيّ رحمه الله رجلًا من أصحاب الأهواء، فقال: «إنِّي لأعرفُ الذِّلَّةَ في وَجْهه، ثُمَّ تلا: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾، ثُمَّ قال: هذه لكُلِّ مُفتَرٍ» [«السير» (21/6)].

ولقد مكَّن اللهُ للمسلمين في بلاد الأندلس، وجعلها لهم بلدةً طيبةً، وآتاهم حسنةَ الدِّين وحسنةَ الدُّنيا، فحكَموها بالإسلام والسُّنَّة ثمانيةَ قُرون، وأنجَبت هذه البلاد كبار العلماء والمحدِّثين والفقهاء والقرَّاء والأدباء، وكانت تزخَر بالعلوم المتنوِّعة والصِّناعات المختلفة، حتَّى وصلوا إلى اختراعات عظيمة لم تَحظَ بها أوربا وقتئذ، مثل صناعة المدافع الَّتي ترمي نوعًا من المحروقات، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة[1].

ولمَّا مال أهلُها ـ حكَّاما ومحكُومين ـ إلى اللَّهو والمجُون والتَّرف، وآثروا الدَّعة واللَّعب والسَّرَف، ودبَّ إليهم التَّباغض والتَّنازع والتَّفرُّق، وغيَّروا ما بأنفسهم، أصابهم سيِّئاتُ ما كسَبوا وسلَّط الله عليهم النَّصارى فسامُوهم سوءَ العذاب، وضاعت الأندلُس مملكةً تلوَ الأخرى، وكان آخرُها سقوطًا غَرناطة سنة سبع وتسعين وثمانمائة، وسلَّمَ ملكُها أبو عبد الله بن الأحمَر مفاتيح البلاد إلى النَّصارى، وقال لقائدهم: «قد صيَّرها الله إلى يدكم عقابًا للمُسلمين على أعمالهم»، هذه هي عاقبة الذُّنوب، وشؤمُ المعاصي.

وصدَقَ رسولُ الله ﷺ إذ قال: «ولَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُوله، إلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِم»، وعن جُبَير بن نُفَير قال: «لمَّا فُتحت قُبْرس، وفُرِّق بين أهلها فبكى بعضُهم إلى بعض، رأيتُ أبا الدَّرداء جالسًا وحدَه يبكي، فقلتُ: يا أبا الدَّرداء! ما يُبكيك في يوم أعزَّ اللهُ فيه الإسلامَ وأهلَه؟ قال: ويحَك يا جُبَير؛ ما أهونَ الخلقَ على الله إذا هُم تركوا أمرَه، بينَا هي أُمَّةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم المُلكُ، تركوا أمرَ الله عزَّ وجلَّ فصاروا إلى ما تَرى» [أخرجه أحمد في «الزُّهد» (ص142)، وأبو نعيم في «الحلية» (216/1)].

وهذا الَّذي أصابَ المسلمين اليومَ لَمَّا تركُوا أمرَ الله، صاروا إلى حالة مزرية، تُخرَّبُ ديارُهم، وتُسفَكُ دماؤهم، وتُستَباح حرماتُهم، وتُنهب خيراتُهم، ولحقَهم الوهَنُ والضَّعف والخذلان، وصاروا طُعمةً سائغةً لإخوان القردَة والخنَازير وعبيد الصُّلبان، لا يعرفون لهم حقًّا ولا حُرمَةً، ولا يرقُبون فيهم إلاًّ ولا ذمَّةً، وأصبحوا «أضيَعَ منَ الأيتَام في مأدُبة اللِّئام».

ولا يخفَى أنَّ أعظَمَ سبب لهذا هُو عزوفهم عن دينهم وعصيانهم لربِّهم، ومخالفتهم لرسُولهم ﷺ، فظَهر فيهم الشِّرك والبدَع والمخالفَات، وفشَا فيهم القَتل والرِّبا والرِّشوة والزِّنا والخَمر والمخدِّرات، وكثر فيهم الظُّلم والنَّهب والاعتداءات.

وإنْ تَعجَب فعجبٌ لتَنافُس بعض المسلمين في مشابهة أعداء الله في أعيادهم، حيث يحتَفلون بعيد رأس السَّنة الميلاديَّة، والأدهى والأمَرُّ أنَّهم يتأهَّبون لذلكَ بتنظيم الحفَلات الماجنة، والسَّهرات السَّاقطة، والسَّفرات المدَمِّرة، وقد أطلعَتْنا بعضُ الصُّحف أنَّه تمَّ توقيفُ كمِّيَّة هائلة من أمِّ الخبائث، أُريد تهريبُها من بعض الجهات الحدوديَّة استعدادًا للغَرَض المذكور، فالله المستَعان ولا حول ولا قوَّة إلاَّ به.

فأين الاعتزاز بالإسلام الَّذي هو مصدَر قوَّتنا وانتصارنا وسعادتنا؟ أينَ الوفاء لشُهدائنا الَّذين سُقيت أرضُ الجَزائر بدمائهم الطَّاهرة؟ أينَ البراءة منَ الكفَّار الَّذين قتَّلوا وعذَّبوا وشرَّدوا وارتكبوا الجرائم البَشِعة ضدَّ آبائنا وأجدادنا؟

فمَن أرادَ العزَّة والرِّفعَة فليطلُبها بتَوحيد الله وطاعته واجتناب معصيته، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10]، «أي: مَن كانَ يحبُّ أن يكونَ عزيزًا في الدُّنيا والآخرة، فليلزَم طاعةَ الله، فإنَّه يحصُل له مقصودُه؛ لأنَّ اللهَ مالكُ الدنيا والآخرة، وله العزَّة جميعُها» [«تفسير ابن كثير» (536/6)].

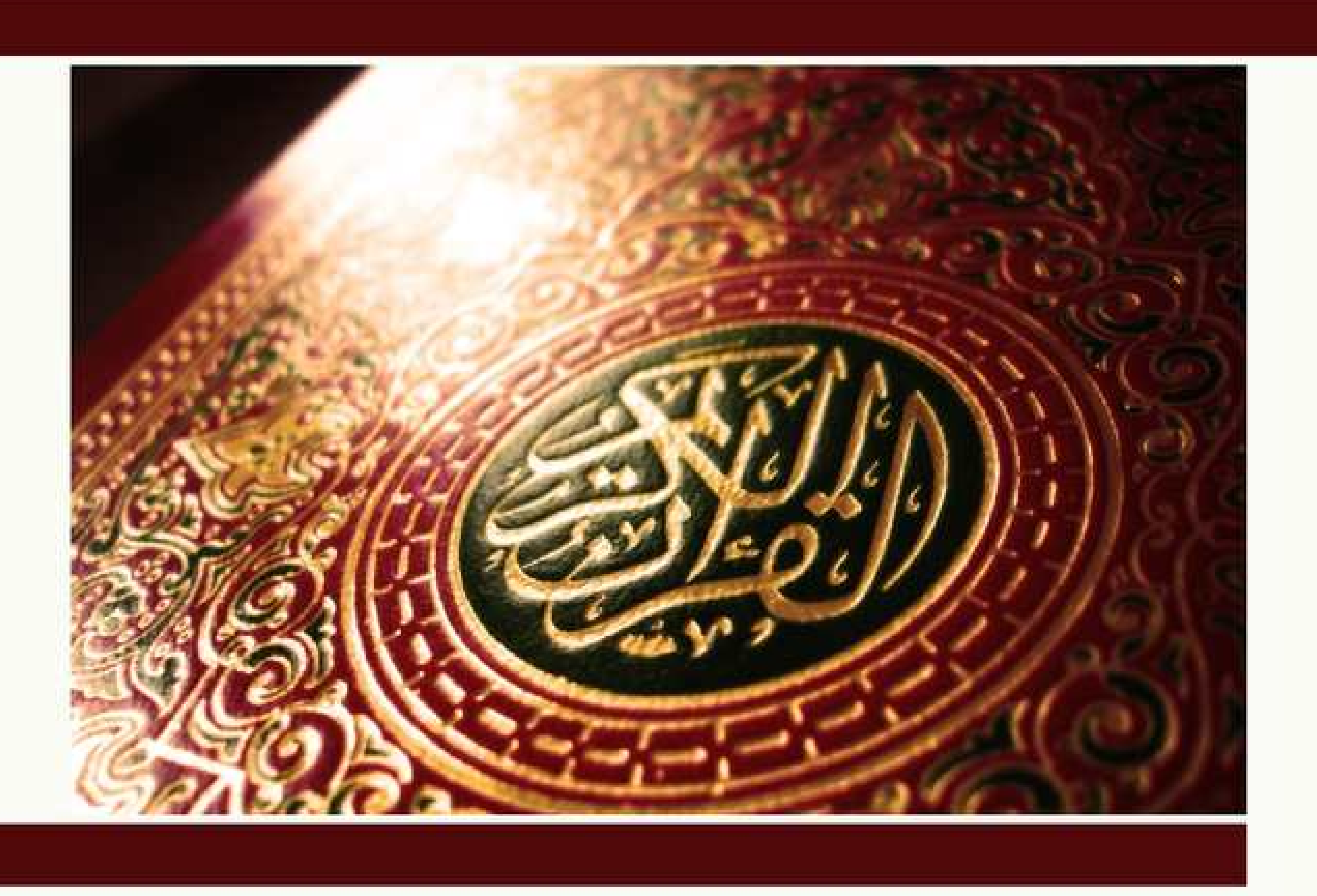
(1) انظر: «نهاية الأندلس» لمحمد عنان (ص 127).

في رحاب القرآن

البيان في أخطاء الاستشهاد بآي القرآن

الجزء (8)

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير



﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦﴾
[سُورَةُ الكَافِرُونَ]

هذه الآية ـ آخر سورة الكافرون ـ جرت مجرى الأمثال المُرسلة، يَستشهد بها بعضُ جهلة المسلمين عند اللّجاج والمغاضبة، يُريدون بها فكَّ النِّزاع، وإنهاءَ الخصام، وتولّي كلُّ طرف وجهته ليستقلَّ برأيه، وشرٌّ من هؤلاء ضعفاءُ الحصانة العقدية، الَّذين ورثوا من دُعاة التَّقريب بين الأديان سَواءَ الإقرار بدين الآخر، تطبيقًا ـ كما في زعمهم ـ لمبدإ: «لكم دينُكم ولي دين»

وجه الخطأ:

فهمُ الآية على غير المعنى الصَّحيح، وتمثُّلٌ بها فيما لا يَتوافق مع المعنى المراد؛ لأنَّ لفظَ «الدِّين» في الآية لا يُراد به الوجهة والرَّأي والحكم، الَّذي ينفرد به المجادل أو المغاضب عن قرينه حالَ الخصومة، ولا الإقرار بدين المخالف لدين الإسلام كما هو ظنٌّ بعض العصرانيِّين لمعنى الآية.

التَّوجيه والتَّصحيح:

اعلم أنَّ للمفسِّرين في بيان المراد من لفظة «الدِّين» قولين[1]:

الأوَّل: بمعنى العقيدة والملَّة.

والثَّاني: بمعنى الجزاء والحساب.

فعلى المعنى الأوَّل؛ فُسِّر قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ بأنَّه الكفر أو الشِّرك، وفسِّر قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ بأنَّه الإسلام أو التَّوحيد[2].

وعلى المعنى الثَّاني؛ فُسِّر قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، أي لكم جزاء أعمالكم، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾، أي جزاء عملي[3]، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [سُورَةُ الشُّورَىٰ].

وعلى المعنيين فلا تظهر حجَّةُ الفريق الأوَّل في الاستشهاد بالآية عند المتاركة[4].

قال الفخر الرَّازي في «تفسيره» (149/31):

«جرَت عادةُ النَّاس بأن يتمثَّلوا بهذه الآية عند المتاركة، وذلك غير جائز؛ لأنَّه تعالى ما أنزل القرآنَ ليُتمثَّل به، بل ليُتدبَّر فيه، ثم يُعمل بموجبه».

وقد تعقَّب الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور في «التَّحرير والتَّنوير» (584/30) الفخر الرَّازي في مسألته قائلاً:

«وهذا كلام غيرُ محرَّر؛ لأنَّ التَّمثُّل به لا يُنافي العمل بموجبه، وما التَّمثُّل به إلاَّ من تمام بلاغته واستعداد للعمل به».

والحقُّ أنَّ كلام الرَّازي في غاية التَّحرير؛ لأنَّه ممَّن يرى عدم جواز ضرب الأمثال من القرآن لما فيه من الخروج عن أدب القرآن، وهو مذهب

(1) انظر: «النُّكت والعيون» للماوردي (359/6).
(2) تنوَّعت عبارات المفسِّرين في ذلك، وهو اختلاف تنوُّع وليس بتضادٍّ، انظر على سبيل المثال: «صحيح البخاري» (الفتح ـ 936/8)، و«تفسير الماوردي» (358/6)، و«تفسير القرطبي» (229/20)، «معاني القرآن» للفرَّاء (297/3) وغيرها.
(3) «فتح البيان» لصدِّيق حسن خان (424/15).
(4) وهو أن يدَع كلُّ واحد منهما ما هو عليه.

بعض أعلام المحقِّقين[5]، ونُسب إلى السَّلف، قال الزَّركشي في «البرهان» (483/1):

«يُكره ضرب الأمثال بالقرآن... وفي كتاب «فضائل القرآن» لأبي عبيد عن النَّخعي قال: «كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند شيء يعرض من أمور الدُّنيا»، قال أبو عبيد: وكذلك الرَّجل يريد لقاء صاحبه أو يهمُّ بحاجته فيأتيه من غير طلب فيقول كالمازح: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ٤٠﴾ [طه] فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب: «لا تناظر بكتاب الله ولا بسنَّة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول: لا تجعل لهمَا نظيرًا من القول ولا الفعل».

ولعلَّ الحقّ فيما نقله ابن مفلح في «الآداب الشَّرعيَّة» (277/2) عن ابن عقيل لَمَّا سُئل عن وضع كلمات وآيات من القرآن في آخر فصول خطبة وعظية؟ فقال:

«تضمينُ القرآن لمقاصد تُضاهي مقصودَ القرآن لا بأس به تحسينًا للكلام، كما يُضمَّن في الرَّسائل إلى المشركين آياتٌ تقتضي الدّعاية إلى الإسلام، فأمَّا تضمينُ كلام فاسدٍ فلا يجوز، ككتُب المبتدعة».

وهذا الحكم عبَّر عنه بأوجز بيان وأحسن مثال محمَّد الخضر حسين في كتابه «بلاغة القرآن» (ص33) بقوله:

«ولا حرج فيما يظهر أن يتمثَّل الرَّجل بالقرآن في مقام الجدِّ، كأن يأسف أسفًا شديدًا لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن النَّاس، فيقول: «ليس لها من دون الله كاشفة» أو يحاور صاحب مذهب فاسد يحاول استهواءه إلى باطله فيقول: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، والإثم الكبير في أن يقصد الرَّجل إلى التَّظاهر بالبراعة فيتمثَّل بالقرآن حتَّى في مقام الهزل والمزاح»[6].

وهذا الحكم بمثل هذا التَّفصيل مقبول[7].

■ ■ ■

ولكن لا حجَّةَ للعامَّة في هذا الاستعمال؛ لأنَّه لا يُناسب مقامَ الجدِّ في التَّمثُّل، وهم أبعدُ من أن يدركوا القصد المراد، فيُجْرُوه على ما يُلائمه أو يقاربه.

والأحوط في كلِّ هذا التَّورُّع من ضرب الأمثال بآيات القرآن، لا سيما إذا صدر من جهَّال، كما قال بهاء الدِّين السُّبكي: «الورع اجتناب ذلك كلِّه وأن يُنزَّه عن مثله كلام الله ورسوله»[8].

■ ■ ■

وأمَّا ما يُغالط به بعض العصرانيِّين . المصحِّحون لما عليه اليهود والنَّصارى اليوم، الوادُّون والموالون لهم . باستشهادهم بهذه الآية، وأنَّ فيها الرِّضا بدين الكفَّار، فهو من الفهم السَّقيم الَّذي أوتوه، ويُعدُّ مُنزلقًا خطيرًا في تفسير القرآن وحملاً له على ما لم ينزل من أجله.

وأمَّا ما يُغالط به بعض العصرانيِّين ـ المصحِّحون لما عليه اليهود والنَّصارى اليوم، الوادُّون والموالون لهم ـ باستشهادهم بهذه الآية، وأنَّ فيها الرِّضا بدين الكفَّار، فهو من الفهم السَّقيم الَّذي أوتوه، ويُعدُّ مُنزلقًا خطيرًا في تفسير القرآن وحملاً له على ما لم ينزل من أجله، قال ابن تيمية في «الجواب الصَّحيح» (60/3):

«وقوله ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ لا يدلُّ على رضاه بدينهم، بل ولا على إقرارهم عليه، بل يدلُّ على براءته من دينهم».

وقال أيضًا في «المجموع» (526/28):

«فإنَّ قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ليس فيه ما يقتضي أن يكون دين الكفَّار حقًّا ولا مرضيًّا له».

وعليه؛ فلا مُتمسَّك لأحد بهذه الآية لإقرار ما عليه جميع أهل الدِّيانات، سواء كانوا من أهل الكتاب أم لم يكن لهم كتاب، وأهلُ الكتاب وإن أُعطوا الأمان، وسَكنوا ديار المسلمين، وتُركوا على اعتقادهم ومُمارسة شعائرهم، فهذا ليس معناه تصويبُ دينهم، وإنَّما اقتضى ذلك اختصاصَهم بعقيدتهم الَّتي لا يجوز إقرارُهم عليها.

---

(5) هذه مسألة اختلف فيها العلماء بين مجيز ومانع، وتعرف عندهم بالاقتباس، وهو تضمين الكلام جملة أو أكثر توافقُ لفظ القرآن، واشتهر المنع عن المالكية، فحرَّموه وشدَّدوا النَّكير على فاعله، ولابن القيِّم في «الفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن» كلام مفاده أنَّ ما اصطلح بعضهم على تسميَته اقتباسًا من القرآن قد نهى عنه جلَّة العلماء وأفاضل الفقهاء الأتقياء، وكرهوا أن يُضمَّن كلام الله تعالى شيئًا من ذلك، أو يُستشهد به في واقعة من الوقائع... لأنَّ ذلك كلَّه ـ كما أضاف ـ صرفٌ لكلام الله عن وجهه، وخروجٌ له عن المعنى الَّذي أُريد به... ـ إلى أن قال ـ: وهو مندرج في التَّحريم لما فيه من عدم الإجلال لكلام الله والتَّعظيم له». =

= وممَّن أجاز الاقتباسَ من القرآن العزُّ بنُ عبد السَّلام، واستعمله قومٌ من العلماء في مواعظهم وخُطبهم؛ منهم ابن الجوزي والقاضي عياض وابن نباته وآخرون، وللسُّيوطي ضمن كتابه «الحاوي للفتاوى» (259/1 ـ 284) رسالة أسْمَاها: «رفع الباس وكشف الالتباس في ضرب المثل من القرآن والاقتباس»، ساق فيها أدلَّةً في جواز الاقتباس.

(6) لو أضاف ـ مع الهزل والمزاح ـ الغضب لكان أجمع وأضبط، وينطبق مع مرادنا في تصويب استشهاد العامَّة بالآية المذكورة.

(7) ورجَّحه الدُّكتور فهد الرُّومي في كتابه «دراسات في علوم القرآن» (ص600).

(8) «الإتقان» للسُّيوطي (316/1) و«الزِّيادة والإحسان في علوم القرآن» لابن عقيلة المكِّي (343/2).

ولإزالـة الاشتباه عن هـذه الآية وأنَّ المـراد مـن الاسـتدلال بها الـبراءة من ديـن الكفَّـار ومخالفتهـم، لا موالاتُهـم وموافقتهـم، نسوقُ هـذا البيان الجالب للانتبـاه المزيـل للاشتباه، الَّـذي دبَّجه يَراع العلاَّمة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «بدائعه» (247/1) وهو من بدائعه حقًّا وصدقًا، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأمَّـا المسألـة الحاديـة عشـرة، وهـي: أنَّ هـذا الإخبار بأنَّ لهـم دينَهم ولـه دينه، هل هو إقـرار فيكون منسوخًا أو مخصوصًـا؟ أو لا نسـخ في الآيـة ولا تخصيص؟

فهذه مسألةٌ شريفةٌ من أهمِّ المسائل المذكـورة، وقد غلـط في السُّورة خلائق، وظنُّـوا أنَّهـا منسوخـة بآيـة السَّيـف؛ لاعتقادهم أنَّ هذه الآية اقتضت التَّقرير لهـم علـى دينهـم، وظـنَّ آخـرون أنَّها مخصوصة بمن يُقَرُّون على دينهم وهم أهـل الكتاب، وكلَا القولين غلط مَحضٌ، فلا نسـخ في السُّـورة ولا تخصيص، بل هـي محكمـة، عمومهـا نصٌّ محفوظ، وهي مـن السُّـور الَّتـي يستحيـل دخول النَّسخ في مضمونها، فإنَّ أحكام التَّوحيد الَّتـي اتَّفقت عليه دعـوة الرُّسل يستحيل دخول النَّسخ فيه، وهذه السُّورة أخلصت التَّوحيد، ولهذا تسمَّى «سورة الإخلاص» كما تقدَّم.

ومَنشأ الغلط ظنُّهم أنَّ الآية اقتضت إقرارهـم علـى دينهم، ثـمَّ رأوْا أنَّ هذا الإقـرار زال بالسَّيف؛ فقالـوا: منسوخ، وقالـت طائفـة: زال عن بعض الكفَّار، وهـم مَـن لا كتـاب لهـم، فقالـوا: هذا مخصوص.

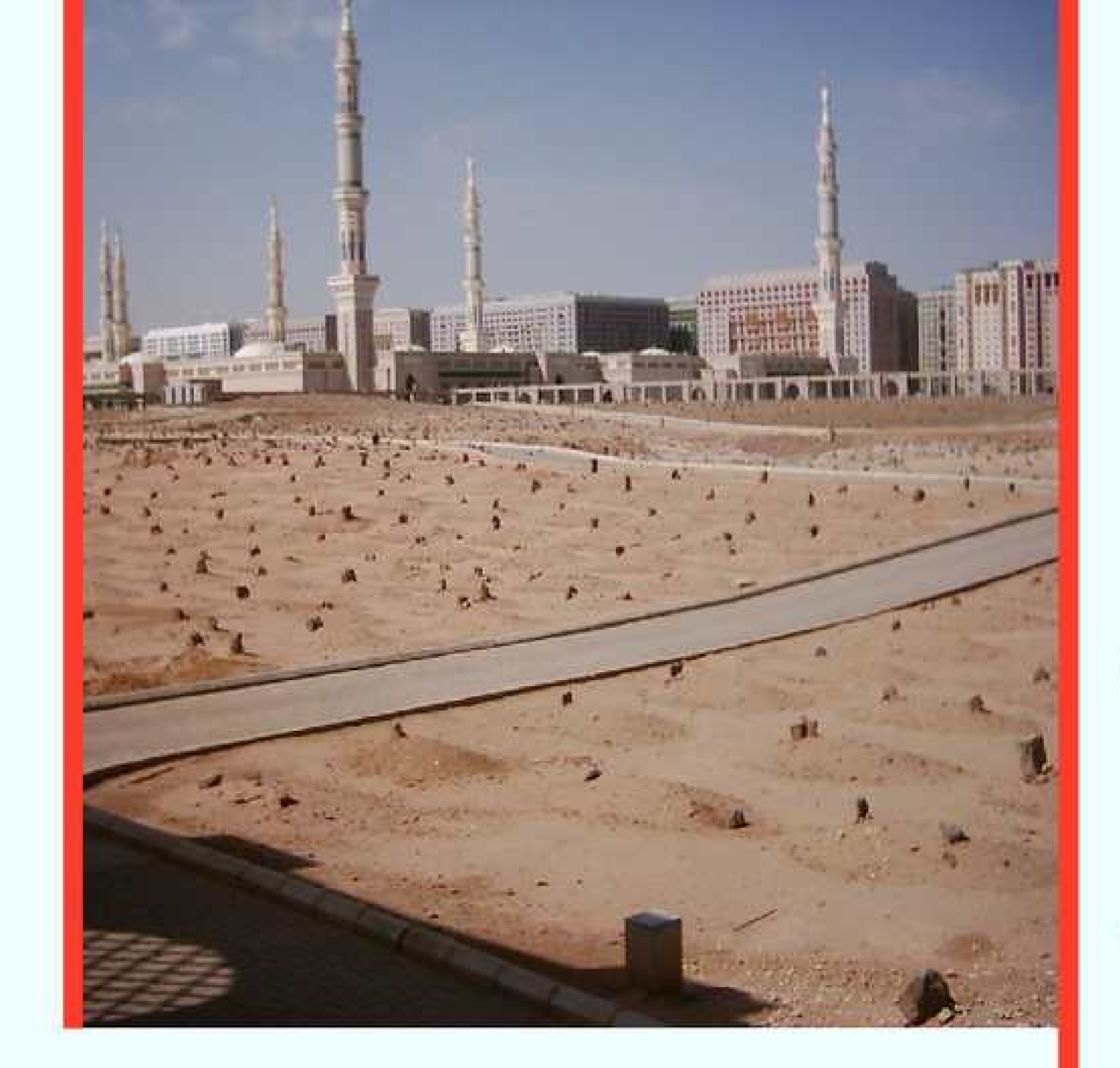
ومعـاذ الله أن تكـون الآيـة اقتضت تقريرًا لهـم، أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بـل لم يزل رسول الله ﷺ ـ في أوَّل الأمر وأشـدِّه عليـه وعلى أصحابـه ـ أشدَّ على الإنـكار عليهم وعيـب دينهـم وتقبيحه والنَّهـي عنه والتَّهديد لهـم، والوعيد كلَّ وقـت وفي كلِّ نـاد، وقـد سألـوه أن يَكفَّ عن ذكر آلهتهم وعَيـب دينهم ويتركونه وشـأنـه، فأبـى إلاَّ مُضيًّـا علـى الإنـكار عليهـم وعيب دينهـم، فكيف يُقـال: إنَّ الآيةَ اقتضت تقريره لهم، معاذ الله من هذا الزَّعم الباطل!

وإنَّما الآيـة اقتضت البراءةَ المحضة كمـا تقـدَّم، وأنَّ ما هم عليـه من الدِّين لا أوافقكـم عليه أبدًا؛ فإنَّـه دين باطل، فهو مختصٌّ بكم، لا نَشرَكُكـم فيه، ولا أنتـم تشركوننـا في ديننـا الحـقِّ، فهذا غاية البراءة والتَّنصُّل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقـرار حتَّى يدَّعى النَّسخ أو التَّخصيـص؟! أفـترى إذا جُوهـدوا بالسَّيف كما جُوهدوا بالحجَّة لا يصحُّ أن يُقال لهم: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾.

بل هذه آية قائمـة محكمة ثابتة بين المؤمنـين والكافريـن إلى أن يطهِّـر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلك حكم هـذه البراءة بين أتباع الرَّسـول ﷺ أهـل سنَّتـه، وبـين أهـل البـدع المخالفين لما جاء به، الدَّاعين إلى غير سنَّتـه إذا قال لهم خلفـاء الرَّسول وورثتـه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾؛ لا يقتضي هـذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولـون لهم هـذه براءة منهـا، وهم مع هـذا مُنتصِبون للـرَّدِّ عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان».

▪ ▪ ▪



حكم نزع النِّعال بين القُبور

صالح لكشبور
ماجستير في العلوم الإسلامية

ممَّا حثَّ عليه الشرع ورغَّب فيه: زيارة المقابر، لما في ذلك من العظة والذِّكرى والاعتبار بمآل الإنسان، قال ﷺ: «زُورُوا القُبُورَ؛ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ»[1]، وورَد أنَّ أكيَس النَّاس أكثرهم للموت ذكرًا، فعَن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل عن أكيس المؤمنين فقال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ»[2].

ولا شكَّ أنَّ لزيارة القُبور آدابًا وسننًا يليق بالمسلم معرفتُها، ويَحسُن به فقهُها؛ حرصًا منه على تحقيق الزِّيارة الشَّرعيَّة السُّنِّيَّة.

ومن هذه الآداب والسُّنن: المشيُ بين القبور بغير نعال.

والزَّائرُ لمقابرنا يلاحظ تركَ الكثيرِ من المسلمين لهذه السُّنَّة، بل لا تكاد تجد القائمَ بها إلاَّ القَليل ممَّن هداه الله لذلك، ولعلَّ البَعض ينكر على فاعلها جهلاً منه بها، فأحببتُ أن أذكِّر نفسي وإخواني بهذه السُّنَّة الطَّيِّبة وما فيها من الحكَم والفوائد؛ عسى أن ينْشَط المتقاعسُ عنها ويُحجمَ المنكرُ على فاعلها، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السَّبيل.

(1) رواه ابن ماجة (1569)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (3577).

(2) رواه ابن ماجة (4259)، وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (1384).

عن بَشير بن الخَصاصية رضي الله عنه ـ وكان اسمُه في الجاهليَّة زَحْم بن معبد فقال له رسولُ الله ﷺ: «**ما اسمك؟**» قال: زَحْم، قال: «**أنت بشير**»، فكان اسمه ـ قال: بينما أنا أمشي مع رسول الله ﷺ فقال: «يا ابن الخصاصية! ما أصبحت تنقم على الله؟»[3]، فقلت: ما أصبحت أنقم على الله شيئًا، كل خير فعل الله بي، فأتى على قبور المشركين فقال: «سبق هؤلاء خيرًا كثيرًا» ـ ثلاث مرَّات ـ، ثمَّ أتى على قبور المسلمين فقال: «لقد أدرك هؤلاء خيرًا كثيرًا» ـ ثلاث مرَّات ـ، فبينما هو يمشي إذ حانت[4] منه نظرة فإذا هو برجل يمشي بين القبور وعليه نعلان فناداه: «**يا صاحب السبْتيتين**[5]**! ألق سبْتيَتَيْك**»، فنظر فلمَّا عرف الرَّجلُ رسولَ الله ﷺ خلع نعليه فرمى بهما[6].

■ ■ ■

رواه الطَّيالسي في «مسنده» (1220)، والإمام أحمد (20784)، والبخاري في «الأدب المفرد» (775)، والنَّسائي

(3) قال له ﷺ ذلك؛ لأنَّ بشيرًا رضي الله عنه كان أظهَر شيئًا من التَّضجُّر بسبَب بُعْده عن دار قومه؛ انظر: «المعجم الكبير» (2/45، ح1236)، أفاده الألباني في «أحكام الجنائز» (ص136).

(4) أي: وقعت منه نظرة.

(5) السِّبْت: بكسر السِّين وسُكون الباء الموحَّدة: جلود البقر المدبوغة بالقرظ يُتَّخذ منها النِّعال، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّ شعرها قد سُبِت عنها، أي: حُلق وأُزيل، وقيل: لأنَّها انسبَتَت بالدِّباغ أي: لانت. انظر: «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (2/330)، و«الفائق في غريب الحديث» للزَّمخشري (2/148)، و«تاج العروس» للزَّبيدي (4/537).

(6) وهو بهذا السِّياق عند ابن حبَّان في «صحيحه» مع اختلاف يسير في اللفظ عند غيره.

(2048)، وفي «الكبرى» (2186)، وأبو داود (3230)، وابن ماجة (1568)، وابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (12259)، والطَّحاوي في «شرح معاني الآثار» (2907)، وابن حبَّان (3170)، والطَّبراني في «الكبير» (2/43)، والحاكم في «مستدركه» (1381)، والبيهقي في «الكبرى» (7216)، وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (21/78)، وابن حزم في «المحلَّى» (5/136)، كلُّهم من طريق الأسود بن شيبان[7]: حدَّثني خالد ابن سُمير قال: أخبرني بشير ابن نهيك عن ابن الخصاصية رضي الله عنه.

قال البيهقي رحمه الله: «هذا حديث قد رواه جماعة عن الأسود ابن شيبان، ولا يعرف إلاَّ بهذا الإسناد».

وجوَّده الإمام أحمد ـ كما سيأتي ـ.

وقال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (9/663): «رجاله رجال الصَّحيح غير خالد بن سمير وهو ثقة».

وحسَّنه النَّووي في «المجموع» (5/288).

وقال الحاكم في «المستدرك» (1/522): «صحيح الإسناد»، ووافقه الذَّهبي، وأقرَّه الحافظ في «الفتح» (10/380)، وأقرَّهما الألباني[8].

وفي رواية أخرى أنَّ الأمر بإلقاء السِّبْتيتين كان لابن الخصاصيَّة نفسه؛ فعن بشير بن نَهيك قال: «أخبرني بشير ابن الخصاصية ـ وكان اسمه في الجاهليَّة: زَحْم، فسمَّاه رسول الله ﷺ بشيرًا ـ قال: بينما أنا أمشي في المقابر وعليَّ نعلان، فإذا برجل ينادي من خلفي: «**يَا صَاحِبَ السِّبْتِيَتَيْنِ!**»؛ فالتفتُّ، فإذا رسول الله ﷺ، فقال لي: «**إِذَا كُنْتَ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْضِعِ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ**»، قال: فخلعتُهما».

رواه ابنُ حزم في «المحلَّى» (5/137)، وابنُ عبد البرِّ في «التَّمهيد» (21/78)، كلاهما من طريق محمَّد بن سليمان البصري ـ هو ابن داود المنقري كما عند ابن عبد البرِّ ـ حدَّثنا سليمان بن حرب حدَّثنا الأسود بن شيبان به[9].

■ ■ ■

فدلالة هذا الحديث على سُنِّية نزع النِّعال عند المشي بين القُبور واضحةٌ بيِّنةٌ.

قال الطَّحاوي رحمه الله: «فذهب قوم إلى هذا الحديث؛ فكرهوا

(7) في «المحلَّى»: الأسود بن شعبان! وهو تصحيف؛ انظر «التَّقريب» (ص 111)، و«تهذيب التَّهذيب» (1/171)..

(8) انظر: «الإرواء» (760)، و«أحكام الجنائز» للألباني (ص 137).

(9) ورجال إسنادهما محتجٌّ بهم. غير المنقري فقد ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (53/119) ولم يذكُر فيه جرحًا ولا تعديلًا. =

المشي بالنِّعال بين القُبور»[10].

وقال الحافظ ابن حجر: «ويدلُّ على الكَراهة حديث بشير ابن الخصاصيَّة»[11].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «وكان[12] يأمر بخلع النِّعال في المقابر، وقال: حديث بشير بن الخصاصيَّة حديث النَّبي ﷺ»[13]، وقال رحمه الله: «إسناد حديث بشير بن الخصاصية جيِّد، أذهب إليه إلاَّ من علَّة»[14].

وقد ذهب إلى كراهة المشي بالنِّعال بين القُبور: أهلُ الظَّاهر، والإمام يزيد بن زُريع، والإمام أحمد[15] وغيرهم.

وهذا الحديث لم يطعن أحدٌ في إسناده؛ قال ابن القيِّم رحمه الله: «وأمَّا تضعيف حديث بشير فممَّا لم نعلم أحدًا طَعَن فيه»[16].

لكنَّ جمهور أهل العلم ذهبوا إلى جواز لبس النَّعل للماشي بين القبور[17]، متأوِّلين دلالة هذا الحديث، وقصره بعضُهم على النِّعال السِّبْتية دون غيرها.

ولعلَّ الدَّافع لهذه التَّأويلات إنَّما هو ظاهر التَّعارض مع الحديث الَّذي رواه الشَّيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»[18].

وقال النَّووي: «قالوا: وحمَلْنا على تأويله الجَمْع بين الحديثين»[19].

■ ■ ■

■ وملخَّص ما تأوَّلوا به حديث ابن الخصاصيَّة:

ـ قد يجوز أن يكونَ النَّبيُّ ﷺ أمر ذلكَ الرَّجل بخلع النَّعلين، لا لأنَّه كرِهَ المشي بين القبور بالنِّعال لكن لمعنى آخر من قَذر رآه فيها يقذِّر القُبور، وقد رأينا رسولَ الله ﷺ صلَّى وعليه نعلاه

= تنبيه: عزا الحافظُ ابنُ حجر هذه الرِّوايةَ إلى «مسند» أحمد، و«سنن» أبي داود، و«مستدرك» الحاكم كما في «الفتح» (10/380)، وتبعَه على ذلك القاري في «مرقاة المفاتيح» (8/263)، والظَّاهر أنَّه وهم! فليسَ لهذه الرِّواية في تلك الكتب أثر، والأشهر والأصحُّ: الرِّواية الأولى. أنَّ الأمر بالإلقاء كان لغَير ابن الخصاصيَّة.، والألباني في «أحكام الجنائز» لم يذكُر الرِّواية الثانية ولم يُشر إليها؛ فالله أعلم.

(10) «شرح معاني الآثار» (1/510).

(11) «الفتح» (3/263).

(12) يعني الإمام أحمد.

(13) انظر: «مسائل الإمام أحمد ـ رواية عبد الله» (ص 143).

(14) «المغني» (3/514)، ويقصد بالعلَّة كوجُود شَوْك في المقبَرة وغير ذلك كمَا سيأتي.

(15) «عمدة القاري» (8/212).

(16) «تهذيب السُّنن» (9/52).

(17) «عمدة القاري» (8/212).

(18) البخاري (1338)، ومسلم (2870).

(19) «المجموع شرح المهذب» (5/288).

ثـمَّ أُمر بخلعهما فخَلعهما وهُـو يصلِّي فلَم يكُن ذلكَ على كَراهة الصَّلاة في النَّعلَيْن، ولكن للقَذَر الَّذي فيهما، ذكر ذلك الطَّحاوي وأبو عُبيد فيمَا نقل عنه البَغوي[20].

وهذا التَّأويل قد ردَّه الإمام ابنُ القيِّم فقال: «هذا ليسَ بشيءٍ ولا ذُكر في الحَديث شيء من ذلك»[21].

- يشبـه أن يكون النَّبـيُّ ﷺ إنَّما كره للرَّجـل المشي في نعليه لمـا فيهمَا منَ الخيلاء فـإنَّ لباسَ السِّبت من لباس أهل التَّرفُّه والتَّنعُّم، وهو قولُ الخطَّابي رَحِمَهُ اللهُ[22].

وهـو متعقَّبٌ بأنَّ ابن عُمـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كان يلبس النِّعال السِّبْتية ويقـول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يلبسهـا[23]، وذلك فيما رواه البخاري في «صحيحـه» عـن عبيد بن جريـج أنَّه قال لابـن عُمَر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «رأيتُـك تصنَع أربعًا لم أر أحدًا مـن أصحَابكَ يصنَعُها... منها: «ورأيتُـك تلبسُ النِّعـال السِّبْتية»، فقال ابن عمـر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «وأمَّا النِّعال السِّبْتية فإنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يلبس النِّعال الَّتي ليس فيها شعر ويتوضَّأ فيها فأنا أحبُّ أن ألبسَها»[24].

ثمَّ إن كانَ في لبسها خُيلاء فيقتضي أن يكون كراهة الانتعال بها في كلِّ حين، وليسَ خاصًّا بالمقبرة.

ثـمَّ إنَّ مشيـةَ الخُيـلاء مذمومَـة ولو بغَـير النِّعـال السِّبْتية - خصوصًـا في المقابـر -، قال عبـد الله بن الإمام أحمـد: «رأيتُ أبي في جنـازة ينظر إلى رجل من الجيران وعليه نعليه يمشي في المقابر بَطرًا، كأنَّه منكر عليه»[25].

- يُبـاح لباس النِّعال في المقابـر ويستثنى النِّعال السِّبْتية فقط لنصِّـه ﷺ عليهـا، وإلى هـذا القَـول ذهـب ابن حـزم، كمَا في «المحلَّـى» (136/5)، والقَاضي أبو يعلى، كمَا في «تهذيب السُّنن» لابن القيِّم (53/9).

وقـد نسـب ابنُ حجـر ابـنَ حـزم إلى الإغـراب - في تقييده النَّهـي بالنِّعال السِّبْتيـة - وقال: «وهو جمـودٌ شديد»، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وليـس ذكر السِّبْتيتين للتَّخصيص، بل اتَّفـق ذلك، والنَّهي إنَّما



هـو للمَشي على القُبـور بالنِّعال»[26]، ووهَّمـه الشَّوكاني في «نيل الأوطـار»، وقـال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يختَـصُّ عـدم الجـواز بكَـون النَّعلَيْن سِبْتيَتين لعَدم الفَارق بينَها وبين غيرها»[27].

■ ■ ■

وأخيرًا؛ فإنَّ حديثَ أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لا دلالة فيه على جواز المشي بـينَ القُبور بالنِّعال، كمَـا قال ابن حجر[28]، وقـال ابنُ الجوزي: «ليـس في الحَديـث سوى الحكايـة عمَّن يدخل المقابـر، وذلك لا يقتضي إباحة ولا تحريمًا»[29]، «بل المعارضة به معارضة فاسدة؛ لأنَّـه إخبـار منه ﷺ بالواقع وهـو سماعُ الميِّت قـرعَ نعال الحيِّ، وهـذا لا يدلُّ على الإذن في قَرع القُبـور والمشي بينَها بالنِّعال، إذ الإخبار عن وقوع الشَّيء لا يدلُّ على جوازه ولا تحريمِه ولا حكمِه؛ فكيفَ يعارَض النَّصُّ الصَّريح به»[30].

وقـال ابنُ قدامة: «وإخبـار النَّبيِّ ﷺ بأنَّ الميِّـت يسمَع قرعَ نعالِهـم لا ينفي الكراهة، فإنَّه يدلُّ على وقوع هذا منهم، ولا نزاع في وقوعه وفعلهم إيَّاه مع كراهته»[31].

وعلـى فرض أنَّ الحديثين متعارضـان فيُجمَع بينهمـا: بأنَّ سمـاع الميِّت لخَفْـق النِّعال لا يستَلزم أن يكـونَ داخلَ المقبرَة، بل يحتَمـل أن يكونَ المرادُ سماعه إيَّاهـا بعد أن يجاوزوا المقبرة[32]، ولا شـكَّ أنَّ هـذا مأخذٌ جيِّدٌ، وجمـعٌ حسَنٌ، ومخـرجٌ لطيفٌ مع إعمال دلالة الحديثين وعدم إهمالهما.

(20) انظر: «شرح معاني الآثار» (510/1)، «شرح السنة» للبغوي (413/5)، «المجموع» للنووي (288/5)، «شرح البخاري» لابن بطَّال (122/9)، «عمدة القاري» (12/8)، «فتح الباري» (380/10).

(21) «تهذيب السُّنن» بحاشية «عون المعبود» (51/9)، وقول ابن القيِّم إنَّما على هذا التَّأويل والَّذي يليه.

(22) «معالم السُّنن» (317/1).

(23) انظر: «الفتح» (263/3).

(24) كتاب اللباس، النعال السِّبتية، وغيرها (5851).

(25) «مسائل الإمام أحمد» (ص: 144).

(26) «الفتح» (263/3).

(27) «نيل الأوطار» (441/7).

(28) «الفتح» (309/10).

(29) المصدر السَّابق بنفس الصَّفحة.

(30) قاله ابن القيم في «تهذيب السُّنن» (51/9) بتصرف.

(31) انظر: «المغني» (515/3).

(32) ذكر ذلك ابن حجر في «الفتح» (263/3)، والشَّوكاني في «نيل الأوطار» (441/7).

وعلى كلِّ حال «فلنا أمْرُ النَّبيِّ ﷺ في الخبر الَّذي تقدَّم، وأقلُّ أحواله النَّدب[33]، ولأنَّ خلع النَّعلين أقربُ إلى الخُشوع، وزيِّ أهل التَّواضع، واحترام أموات المسلمين»[34]، و«مَن تدبَّر نهي النَّبيِّ ﷺ عن الجُلوس على القَبر والاتِّكاء عليه والوطء عليه علمَ أنَّ النَّهي إنَّما كان احترامًا لسكَّانها أن يوطَأ بالنِّعال فوق رؤوسهم، ولهذا يُنهى عن التَّغوُّط بين القُبور، وأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الجلوس على الجَمر حتَّى تحرقَ الثِّياب خير من الجُلوس على القبر؛ ومعلومٌ أنَّ هذا أخفُّ من المشي بين القُبور بالنِّعال، وبالجملة فاحترام الميِّت في قبره بمنزلة احترامه في داره الَّتي كان يسكنُها في الدُّنيا، فإنَّ القَبر قد صار داره، وفي قوله ﷺ: «**كسْرُ عَظم الميِّت ككَسْره حيًّا**»[35] دلالة على أنَّ احترامَه في قَبره كاحترامه في داره، والقُبور هي ديار الموتى ومنازلهم وعليها تَنْزِل الرَّحمةُ من ربِّهم والفَضلُ على مُحسنِهم فهي منازل المرحُومين، فكيفَ يستَبعد أن يكونَ من محاسن الشَّريعة إكرام هذه المنازل عن وطئها بالنِّعال واحترامها! بل هذا من تمام محاسنها، وشاهده ما ذكرناه من وطئها والجُلوس عليها والاتِّكاء عليها»[36].

ولعلَّك ـ أيُّها الحريص على سنَّة نبيِّك ﷺ ـ أن تكونَ مثل الإمام عبد الله بن عثمان رَحِمَهُ اللهُ[37]، وذلك فيما ذكَره ابن حبَّان في «صحيحه» (7/441)، ونحوه ابن ماجه (1568) أنَّ عبد الرَّحمن بن مهدي قال: كنتُ أكون مع عبد الله بن عثمان في الجَنائز، فلمَّا بلغَ المقابر حدَّثته بهذا الحَديث. حديث ابن الخصاصيَّة. فقال: «حديث جيِّد ورجُل ثقة، ثمَّ خلَعَ نعلَيْه فمَشى بينَ القُبُور»، وقال عبدُ الله بن الإمام أحمد: «رأيتُ أبي إذا أرادَ أن يدخُل المقَابر خَلَع نعلَيْه»[38].

ولا بأسَ أن تلبسَ عند وجود ضَرر، أو مشقَّة، أو كان للماشي عُذر يمنَعُه من خلع نعلَيْه مثل الشَّوك يخافُه على قدمَيْه، أو نجاسَة تمسُّهما، فلا يُكره حينها المشي في النَّعلَيْن، ذلك لأنَّ العُذر يمنَعُ الوجُوب في بعض الأحوال والاستِحباب أولى[39].

■ ■ ■

وأختمُ هذه الكلمة بسُؤال ورد إلى اللَّجنة الدَّائمة: هل خلعُ النِّعال في المقَابر من السُّنَّة أم بدعَة؟

فأجابت: «يُشرع لمن دَخل المقبَرة خلع نعليه لما روى بشير ابن الخصَاصيَّة. الحديثَ السَّابق. وقال أحمد: إسناد حديث بشير بن الخصَاصيَّة جيِّد أذهبُ إليه إلاَّ من علَّة، والعلَّة الَّتي أشَار إليهَا أحمد رَحِمَهُ اللهُ كالشَّوك والرَّمضَاء[40] ونحوهما فَلا بأسَ بالمشي فيهما في القُبور لتوقِّي الأذى، وبالله التَّوفيق؛ وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم»[41].

والله أعلم؛ وسبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

■ ■ ■

(33) وظاهر كلام الشَّوكاني: الوجوب، انظر: «نيل الأوطار» (7/440)، و«السَّيل الجرَّار» (1/370).

(34) قاله ابن قدامة في «المغني» (3/515).

(35) رواه أبو داود (3207)، وابن ماجة (1616)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (763).

(36) نقلته عن ابن القيِّم بتصرُّف يسير؛ انظر: «تهذيب السُّنن» (9/51).

(37) ابن جبَلَة بن أبي رواد يلقَّب بـ«عبْدان»: الإمام الحافظ؛ كان ثقةً مجوِّدًا، توفي سنة 221، من أقواله: «ما سألني أحدٌ حاجةً إلاَّ قُمت له بنفسي، فإن تمَّ وإلاَّ قُمت له بمالي، فإن تمَّ وإلاَّ استعنتُ بالإخوان، فإن تمَّ وإلاَّ استعنتُ بالسُّلطان»؛ «تهذيب الكمال» (15/276)، «سير النُّبلاء» (10/270).

(38) «مسائل الإمام أحمد» (ص143).

(39) «المغني» (3/515).

(40) شدَّة الحرِّ.

(41) «فتاوى اللجنة الدائمة» (9/123).



تفنيد شبه المجيزين للتوسل



سالم موريدة
أدرار

قال الشيخ مبارك الميلي رحمه الله: «التَّوسُّل: هو التَّقرُّب إلى الله بتلك القربة، وتوسُّل الدَّاعي هو طلبه المبني على تلك القربة، وليس في الشَّرع مطلوب ولا مدعو إلاَّ الله، وليس فيه من قربة إلاَّ ما شرعه في الكتاب والسُّنَّة، قال ابن أبي زيد في «الرِّسالة»: «ولا يكمل قول الإيمان إلاَّ بالعمل، ولا قول وعمل إلاَّ بنيَّة، ولا قول ولا عمل ونيَّة إلاَّ بموافقة السُّنَّة».

تعريف التوسل:

قال ابن الأثير عند مادَّة «وسل» في «النِّهاية» (185/5):

«في حديث الأذان: «اللَّهُمَّ آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ» هي في الأصل ما يُتوصَّل به إلى الشَّيء ويُتقرَّب به، وجمعها وسائل، يقال: وسل إليه وسيلةً، وتوسَّل.

والمراد به في الحديث القُربُ من الله تعالى، وقيل: الشَّفاعة يوم القيامة، وقيل: هي منزلة من منازل الجنَّة كما جاء في الحديث».

وقال الفيُّومي في «المصباح المنير»: «وتوسَّل إلى ربِّه بوسيلة، تقرَّب إليه بعمل».

وقريب من هذا قول الزَّمخشري في «أساس البلاغة» (334/2): «وتوسَّلت إلى الله بالعمل، تقرَّبت، قال لبيد:

أرى النَّاس لا يدرون ما قدرُ أمرهم
بلى كلّ ذي دين إلى الله واسِل

وكذا الفيروزآبادي قال في «القاموس»: «ووَسَّل إلى الله تعالى توسيلا، عمل عملاً تقرَّب به إليه كتوسَّل».

وزاد هذا المعنى الرَّاغب الأصبهاني وضوحًا عندما قال بعد قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]، قال: «وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحرِّي مكارم الشَّريعة، وهي كالقربة، والواسل الرَّاغب إلى الله تعالى» [من «معجم مفردات القرآن» (524)].

تنبيه: لم يَرِد ذكر «الواسطة» في كلام ابن الأثير في «النِّهاية»، فاعجَب لمن تعلَّق بالواسطة حتَّى افترى على أهل اللُّغة! فكُنْ على حذر ولا تثق بما ينقلونه.

فلو قال: «فما لا يُمكن الوصول إليه بغير واسطة، تُتَّخذ الوسيلة للوصول إليه بواسطة، وتلك الواسطة هي الوسيلة» لكان صوابًا كما قال الشيخ النَّجمي في «أوضح الإشارة في الرَّدِّ على من أجاز الممنوع من الزِّيارة» (ص 450).

والمعنى الشَّرعي للوسيلة اختصره مبارك الميلي في «رسالة الشِّرك ومظاهره» (ص 293) فقال: «قربة مشروعة توصل إلى مرغوب فيه والتَّوسُّل هو التَّقرُّب إلى الله بتلك القربة، وتوسُّل الدَّاعي هو طلبه المبني على تلك القربة، وليس في الشَّرع مطلوب ولا مدعو إلاَّ الله، وليس فيه من قربة إلاَّ ما شرعه في الكتاب والسُّنَّة، قال ابن أبي زيد في «الرِّسالة»: «ولا يكمل قول الإيمان إلاَّ بالعمل، ولا قول وعمل إلاَّ بنيَّة، ولا قول ولا عمل ونيَّة إلاَّ بموافقة السُّنَّة»».

ولمَّا كان لفظ الوسيلة فيه إجمال واشتباه، وجب هذا التَّدقيق ليحرَّر معناه ويُعرف ما كان يتحدَّث به الصَّحابة رضي الله عنهم وما أحدثه المحْدَثون وتوسَّعوا فيه حتَّى أدخلوا فيه التَّوسُّل بذوات الأنبياء والصَّالحين، وزعموه مشروعًا وانتحلوا له الأدلَّة والحجج، وهي في الحقيقة شُبه أثارها القوم لينفقوا سلعتهم ويكفي

في الـردِّ علـى مدَّعي مشروعيَّـة التَّوسُّل بـذات النَّبيِّ ﷺ أو بـذوات الصَّالحين أنَّـه لم يُنقل عن أحد أنَّه توسَّل بالخلفاء الأربعـة أو بالعشرة المبشَّرين بالجنَّة، أو بالبدريِّين، والعمل بمـا فهموه هو المنهج السَّلفـي، والتَّشبُّـث بالعمومات مع عدم الالتفات إليهم هو المنهج الخلفي.

▫ وفي هذا المقال تفنيد لتلك الشـبه مما زعمه القوم أنه أدلة يستدل بها:

□ حديث توسُّل آدم بالنَّبيِّ ﷺ:

تفـرَّد به عبـد الرَّحمن بـن زيد ابن أسلم وهوضعيف، والحديث صحَّح إسناده الحاكم، وتعقَّبه الذَّهبي بقوله: «قلت: بل موضوع، وعبد الرَّحمن واه»، وضعَّف هذا الحديـث الزَّرقاني في «شـرح المواهب»، انظر «هذه مفاهيمنا» (ص26).

وعبد الرَّحمن بن زيد بن أسلم الَّذي عليـه مـدار الحديث قال عنـه الحاكم نفسـه في «المدخـل إلى الصحيح»: «روى عن أبيه أحَاديث مَوْضُوعَة لا يخفى على مَن تأمَّلهـا مِن أهل الصَّنْعَـة أنَّ الحمل فيها عليه».

والسُّبكي في كتابه «شفاء السّقام في زيارة خير الأنام» (ص161) أورد حديث الحاكم وقـال: «اقتصرنـا منها على ما تبـيَّن لنا صحَّته»، وهذا منه تصريحٌ بأنَّ غير المذكور ضعيـف، فليحتفظ بهذا في تضعيف ماعـدا هذا النَّصّ في الموضوع، والسُّبكـي يُعتبـر حامل لـواء الاستدلال على مشروعيَّة التَّوسُّل بالصَّالحين وشدِّ الرِّحـال لزيـارة قبورهـم، وكلٌّ من جاء بعده فهو عالة عليه في الاستدلال.

والصَّحيـح أنَّ توبةَ آدم عليه السلام كانت بالكلمـات، كما قـال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ [البقرة: 37]، كمـا هـو قـول السَّلف في تفسير الآية.

قال الطَّبري: «والَّذي يدلُّ عليه كتاب الله - جلَّ ثناؤه - أنَّ الكلمات الَّتي تلقَّاهنَّ آدم من ربِّه هنَّ الكلمات التي أخبر - جلَّ ذكره - عنه أنَّه قالها متنصِّلاً بقيلها إلى ربِّه معترفًـا بذنبه، وهو قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾» [الأعراف: 23].

انظر: «تفسير الطَّبري» (586/1)، و«تفسير ابن كثير» (238/1).

□ قصَّة الضَّرير وقصَّة عثمان ابن حُنَيف رضي الله عنه:

أخرج أحمد (17240) وغيرُه بسند صحيـح عـن عثمان بـن حُنَيف رضي الله عنه: «أنَّ رجـلاً ضرير البصر أتى النَّبيَّ ﷺ فقـال: ادع الله أن يعافينـي، قـال: إن شئتَ دعوتُ لـك، وإن شئتَ أخرَّتُ ذلك فهـو خـير - وفي رواية: إن شئـتَ صبرتَ فهـو خيرٌ لـك - فقـال: ادْعُـه، فأمره أن يتوضَّـأ فيحسن وضـوءه ويصلِّي ركعتين ويدعو بهـذا الدُّعاء: اللَّهـمَّ إنِّي أسألك وأتوجَّه إليك بنبيِّك محمَّد نبيِّ الرَّحمة، يـا محمَّـد! إنِّي توجَّهت بـك إلى ربِّي في حاجتـي هذه فتقضـى لي، اللَّهمَّ فشفِّعه فيَّ، وشفِّعني فيه، قال: ففعل الرَّجل فبرأ».

أمَّـا الحديـث فصحيـحٌ عنـد أهل العلم، ويُستفـاد منه أنَّ الضَّرير أراد أن يتوسَّـل بدعاء النَّبيِّ ﷺ، لـه بدليل أنَّه جاء وقصـده مخاطبًا إيَّـاه بقوله: «ادعُ الله أن يعافينـي»، وأعجـب كيـف غفـل من أراد أن يكون هـذا الحديث مستندًا في مشروعيَّـة التَّوسُّل بـذات النَّبيِّ ﷺ ثـمَّ بـذات غيره مـن الصَّالحـين، كيف غفلـوا عـن هـذه الجملـة الصَّريحة في الاستدلال على أحد أنـواع التَّوسُّل، وهو التَّوسُّـل بدعـاء الرَّجـل الصَّالح، وفهم النَّبـيّ ﷺ مراده فخـيَّره بين الدعاء له أو الصـبر بقوله: «إِنْ شِئْـتَ دَعَوْتُ لَكَ وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، ولم يقل لـه: يكفيك أن تذهـب إلى بيتك فتقول: اللَّهـمَّ إنِّي أسألك بجاه نبيِّك، فلمَّا أصرَّ الضَّرير على اختياره، أرشده النَّبيُّ ﷺ إلى أن يَضمَّ إلى الوسيلة السَّابقة وسيلة أخـرى؛ وهـي التَّوسُّل بالعمـل الصَّالح، فأمـره بالوضـوء وصلاة ركعتـين ولقَّنه دعاءً يقوله.

وقوله: «اللَّهـمَّ فشفِّعه فِيَّ» أي: اقبل دعاءه فيَّ.

وقولـه: «وشفِّعنـي فيـه» أي اقبـل شفاعتي أي دعائـي في أن تقبل شفاعته ﷺ أي دعاءه في أن تردَّ عليَّ بصري.

وهل يلحـق بذاته غيره مـن الذَّوات الَّتـي صلاحهـا مظنـونٌ من أمَّتـه، فهو فارق يمنع من الإلحـاق، أضف إلى هذا فإنَّ إجابـةَ دعائه بـردِّ البصر للأعمى يشبـه مـا كان لعيسى بـن مريم عليه السلام من إبراء الأكمَه والأبرص وإحياء الموتى وغيرهـا مـن المعجـزات الَّتـي تختصُّ بالرُّسل ؛ لذلـك أدرجها البيهقي في كتابه «دلائل النُّبوَّة».

ولا يعترض على هذا بتلك الزِّيادة الضَّعيفـة الَّتي رواها حمَّـاد بن سلمة، وفيهـا: «وإن كانـت لـك حاجـة فافعل مثـل ذلك فافعل»، وانظر سبب ضعفها عنـد العلاَّمـة الألبـاني في «التَّوسُّـل» (ص81-82).

ولا بالقصَّـة الضَّعيفـة الَّتـي عـن عثمان بـن حنيف لرجل مـع عثمان ابن عفَّـان وهـي مـا أخرجـه الطَّـبراني في

«المعجـم الصَّغير» (508)، وفي «المعجم الكبير» (30/9) من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب ابن سعيد، عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عـن أبي أمامة ابن سهـل بن حنيف عن عمِّـه عثمـان ابن حنيـف أنَّ رجـلًا كان يختلـف إلى عثمـان ابـن عفَّان رضي الله عنه في حاجة له، فكان عثمـان لا يلتفت إليه ولا ينظـر في حاجتـه، فلقـي عثمان بن حنيف فشكا ذلك إليـه، فقال له عثمان بن حُنيـف: ائـت الميضـأة فتوضَّـأ، ثمَّ ائـت المسجد فصلِّ فيـه ركعتين، ثمَّ قل: اللَّهـمَّ إنِّي أسألـك وأتوجَّه إليـك بنبيِّنا محمَّد ﷺ نبـيِّ الرَّحمة، يا محمَّد! إنِّي أتوجَّـه بـك إلى ربِّك -جـلَّ وعـزَّ- فيقضي لي حاجتـي، وتذكـر حاجتـك، ورُحْ إليَّ حتَّى أروح معـك، فانطلق الرَّجل فصنع ما قال لـه عثمان، ثمَّ أتى بـاب عثمان، فجـاء البـوَّاب حتَّـى أخذ بيـده فأدخله علـى عثمان بن عفَّان، فأجلسه معه على الطِّنفسة وقـال: حاجتك؟ فذكر حاجته فقضاهـا لـه، ثـمَّ قـال لـه: مـا ذكرت حاجتك حتَّى كانـت هذه السَّاعة، وقال: مـا كانت لك مـن حاجـة فأتنا، ثـمَّ إنَّ الرَّجل خرج من عنـده فلقي عثمان ابن حنيـف فقـال له: جـزاك الله خـيرًا ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليَّ حتَّى كلَّمته فيَّ، فقـال عثمان بن حنيف: والله ما كلَّمته، ولكـن شهدت رسول الله ﷺ وأتـاه ضريـر فشكا إليه ذهـاب بصره، فقال له النَّبـيُّ ﷺ: أفتصبر؟ فقال: يا رسـول الله! إنَّه ليس لي قائـد، وقد شقَّ علـيَّ، فقال له النَّبـيُّ ﷺ: ائت الميضأة فتوضَّـأ ثـمَّ صـلِّ ركعتـين ثـمَّ ادع بهذه الدَّعوات، قال عثمان بن حنيف: فوالله! ما تفرَّقنا وطال بنـا الحديث حتَّى دخل علينا الرَّجل كأنَّه لم يكن به ضرر قطُّ.

قال الطَّبراني: «لم يروه عن روح ابن القاسـم إلاَّ شبيـب بن سعيـد أبو سعيد المكِّي وهو ثقة»، قال الألباني: «وخلاصة القـول إنَّ هذه القصَّـة ضعيفة منكرة»، ثمَّ ذكر أسباب ضعفها في كتابه «التَّوسُّل أنواعه وأحكامه» (ص86).

والقصَّـة تتضمَّـن غمـزًا في عثمان الخليفـة الرَّاشـد رضي الله عنه بمـا لا يليـق بمـن كان في منصب الرَّاعي القائم على سياسة دنيا النَّاس ويوكل من النَّاس من يرفع إليه الحاجات، فكيف يعرض عمَّن هـو صاحـب الحاجـة ولا يلتفـت إليـه، فليتنبه الفطن لهذا.

ووجدتُ أنَّ الشَّيخ الألباني أشار إليه بعبارة أخرى (ص89).

□ دعاء الخروج إلى المسجد:

عـن أبـي سعيـد الخـدري مرفوعًا: «مَن قال حين يخرج إلى الصَّلاة: اللَّهمَّ إنِّي أسألـك بحقِّ السَّائلـين عليك وبحقِّ ممشاي هذا، فـإنِّي لم أخـرج أشرًا ولا بطـرًا... وأقبـل الله عليـه بوجهه حتى يفرغ من صلاته»، رواه أحمد (11156) - واللَّفظ له - وابن ماجه (778).

قال الألباني رحمه الله: «إسناده ضعيف؛ لأنَّـه من روايـة عطيَّـة العوفي عـن أبي سعيد الخدري» انظر: «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» (رقـم24)، و«التَّوسُّل أنواعه وأحكامه» (ص92).

وعطية العوفي ضعَّفـه جمع من أهل العلـم، وقال عنه الحافـظ ابن حجر في «طبقات المدلِّسين»: «مشهـور بالتَّدليس القبيح».

قـال الألبـاني: «وهذا وحـده عندي يسقـط عدالـة عطيَّـة هذا، فكيـف إذا انضـمَّ إلى ذلـك سـوء حفظـه». انظر «التَّوسُّل أنواعه» (ص 93، 96).

وعلـى فرض صحَّة الحديث؛ فإنَّه لا حجَّـة فيه لمـن أجـاز التَّوسُّـل بذوات الصَّالحين، فحـقُّ السَّائلين على الله هو إجابة الدُّعاء، وإجابة دعائهم صفة من صفاته تعالى، فعاد الأمر إلى سؤال الله بصفة من صفاته.

وحـقُّ الممشى أن يغفـر الله للماشي في سبيلـه إلى المسجد، وهذا من صفاته إثابة عبده بغفران ذنبه كلَّما رفع خطوة يرفعه بها درجة، ويحطُّ عنه خطيئة بكلِّ مـا حطَّه مـن الخطى وهذا مـن صفاته تعالى، أو هو توسُّل بعمل صالح.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وهذا المستحقُّ لهـذا الحـقِّ إذا سـأل الله تعـالى بـه، يسـأل الله تعالى إنجاز وعـده، أو سأله بالأسبـاب الَّتـي علَّق الله بهـا المسبَّبات كالأعمال الصَّالحة، فهذا مناسب، وأمَّا غير المستحقِّ لهذا الحـقِّ إذا سأله بحقِّ ذلـك الشَّخص فهـو كما لـو سأله بجاه ذلك الشَّخص، وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السَّائل، لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه».

□ حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها:

عـن أنس بـن مالك قـال: «لمَّا ماتت فاطمـة بنـت أسد ابـن هاشـم أمّ عليٍّ رضي الله عنهما ... دعـا أسامة بن زيد وأبا أيُّوب الأنصـاري وعمـر بن الخطَّـاب وغلامًا أسود يحفُرون ... فلمَّا فرغ، دخل رسول الله ﷺ فاضطجـع فيـه، فقـال: «الله الَّـذي يحيـي ويُميت وهو حـيٌّ لا يموت، اغفـر لأمِّـي فاطمـة بنـت أسـد ولقِّنها حجَّتهـا، ووسِّع عليها مدخلها بحقِّ نبيِّك والأنبيـاء الَّذين من قبلـي، فإنَّك أرحم الرَّاحمين ...».

رواه الطَّبراني في «الكبير» (351/24)،

و«الأوسط» (189)، ومن طريقه رواه أبو نعيم في «الحلية» (3/121)، ومداره على روح بن صلاح، وقد ضعَّفه ابن عديٍّ بقوله: «له أحاديث ليست بالكثيرة... وفي بعض حديثه نُكرة»، وقال الدَّارقطني: «ضعيف في الحديث»، وقال الألباني رحمه الله: «فقد اتَّفقوا على تضعيفه، فكان حديثه منكرًا لتفرُّده به».

وقد فصَّل فيه الكلام الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (23).

□ عن عتبة بن غزوان عن نبيِّ الله ﷺ:

«إذا أضلَّ أحدكم شيئًا أو أراد أحدكم عونًا، وهو بأرض ليس بها أنيسٌ فليقل: يا عباد الله أغيثوني! يا عباد الله أغيثوني! فإنَّ لله عبادًا لا نراهم».

رواه الطَّبراني في «معجمه الكبير» (17/117) من طريق أحمد بن يحيى الصُّوفي: ثنا عبد الرَّحمن بن شريك، حدَّثني أبي عن عبد الله بن عيسى عن زيد بن علي عن عتبة بن غزوان مرفوعًا.

والسَّند فيه ثلاث عِلل:

- الانقطاع بين زيد بن علي وعتبة.

- ضعف عبد الرَّحمن بن شريك، قال عنه ابن حجر: «صدوق يخطئ».

- أبوه: شريك، قال عنه الحافظ: «شريك بن عبد الله النَّخعي الكوفي القاضي بواسطة ثمَّ الكوفة، أبو عبد الله صدوق يخطئ كثيرًا، تغيَّر حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلاً فاضلاً عابدًا شديدًا على أهل البدع».

وانظر لتخريج الحديث: «السِّلسلة الضَّعيفة» (656).

□ أثر مالك الدار رحمه الله:

قال الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النُّبوَّة» (7/47): أخبرنا أبو نصر بن قتادة وأبو بكر الفارسي قالا، حدَّثنا أبو عمرو بن مطر، حدَّثنا إبراهيم بن علي الذّهلي، حدَّثنا يحيى ابن يحيى، حدَّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن مالك قال: أصاب قحط في زمن عمر بن الخطاب، فجاء رجل إلى قبر النَّبي ﷺ فقال: يا رسول الله! استسق الله لأمَّتك فإنَّهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: ائت عمر، فأقرئه منِّي السَّلام وأخبره أنَّكم مُسْقون، وقل له: عليك الكَيْس الكَيْس، فأتى الرَّجلُ عمرَ فأخبره، فبكى عمر، فقال: يا رب! لا آلو إلاَّ ما عجزت عنه».

ذكره ابن كثير في «البداية والنِّهاية» (10/73 - 74) وقال: «وهذا إسناد صحيح».

وقبل هذه الرِّواية ذكر ابن كثير رواية سيف للحديث، وفي هذه الرِّواية تفسير معنى الكيس الَّذي ذكر في هذه، وهو التَّعجيل بصلاة ركعتي الاستسقاء، وهو الَّذي فطن له الصَّحابة عندما ذكرت لهم القصَّة من على المنبر.

والأثر ضعَّفه الشيخ الألباني.

وعلى فرض صحة القصَّة؛ فإنَّها «مخالفة لما ثبت في الشَّرع من استحباب إقامة صلاة الاستسقاء لاستنزال الغيث من السماء، كما ورد ذلك في أحاديث كثيرة، وأخذ به جماهير الأئمة، بل هي مخالفة لما أفادته الآية من الدُّعاء والاستغفار، وهي قوله تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١..﴾ وهذا ما فعله عمر بن الخطاب حين استسقى وتوسل بدعاء العباس رضي الله عنهما، وهكذا كانت عادة السَّلف الصَّالح كلَّما أصابهم القحط أن يصلوا ويدعوا، ولم ينقل عن أحد منهم مطلقاً أنَّه التجأ إلى قبر النَّبي ﷺ، وطلب منه الدُّعاء للسقيا، ولو كان ذلك مشروعًا لفعلوه ولو مرة واحدة، فإذا لم يفعلوه دل ذلك على عدم مشروعية ما جاء في القصة».

انظر: «التَّوسُّل أنواعه وأحكامه» (ص 126)، وكتاب «مفاهيمنا» لصالح آل الشَّيخ (ص95).

□ قصَّة أبي جعفر المنصور مع مالك بن أنس رحمهما الله:

قال مبارك الميلي رحمه الله في «الشِّرك ومظاهره»، «وفي الباب الثَّالث من القسم الثَّاني من «الشِّفا» عن محمَّد بن حميد الرَّازي أنَّ مالكًا والخليفة المنصور اجتمعا فسأل المنصور مالكًا: أيستقبل القبلة ويدعو، أو يستقبل رسول الله ﷺ؟ فأجابه: ولِمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله، بل استقبله واستشفع به يشفِّعه الله فيك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝٦٤﴾ [النساء: 64].

أورد القصَّة ابن تيميَّة في «القاعدة الجليلة» (ص111 - 112)، وقال معقِّبًا: «وهذه الحكاية منقطعة؛ فإنَّ محمَّد ابن حميد الرَّازي لم يدرك مالكًا لا سيَّما في



زمن أبي جعفر المنصور فإنَّ أبا جعفر توفي بمكَّة سنة ثمان وخمسين ومائة، وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة، وتوفي محمد بن حميد الرَّازي سنة ثمان وأربعين ومائتين ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلاَّ وهو كبير مع أبيه، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث، كذَّبه أبو زرعة وابن وارة...».

وأورد القصَّة مُرعي بن يوسف الكرمي (ت1033هـ) في كتابه «شَفَاء الصُّدور في زيارة أهل المشاهد والقبور» فقال: «هذه الحكاية على هذا الوجه إمَّا أن تكون ضعيفة أو مؤوَّلة بما لا يوافق مذهبه من أنَّ المراد به ما قاله في الرِّواية الأخرى: لا بأس لمن قدم من سفر أو خرج أن يقف على قبر النَّبيِّ ﷺ ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلِّم ويدعو ولا يمسُّ القبر بيده» (ص344).

قلت: لابن فرحون كتاب «الدِّيباج المذهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب» وذكر من أخبار مالك، وتوسَّع فيها وأكثر النَّقل من «المدارك»، وذكر فصلاً في أخبار مالك مع الملوك، ولم يورد قصَّته مع أبي جعفر المنصور هذه، ثمَّ أكمل عمله أحمد بابا التنبكتي (1036) في «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدِّيباج» ولم يذكر محمَّد بن حميد في جملة تلامذة مالك بن أنس ليعلم أنَّ سند القصَّة منقطع كما قال ابن تيمية رحمه الله.

فمحمَّد بن حميد ضعيف إذا أسند، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلاَّ من جهته، وهو خراساني بعيد الدَّار.

وما احتوت عليه القصَّة خلاف الثَّابت المنقول عن مالك بأسانيد الثِّقات في كتب أصحابه، كما ذكره إسماعيل ابن إسحاق القاضي وغيره، مثل ما ذكروا عنه أنَّه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبلي الحجرة يدعون لأنفسهم فأنكر مالك ذلك، وذكر أنَّه من البدع الَّتي لم يفعلها الصَّحابة والتَّابعون لهم بإحسان، وقال: لا يصلح آخر هذه الأمَّة إلاَّ ما أصلح أوَّلها[1]، ومن رام الازدياد من وجوه بطلان وكذب هذه القصَّة فليطالع ما كتبه ابن تيمية عنها في كتابه الفذِّ «الاستغاثة في الرَّدِّ على البكري» (ص؟؟؟).

□ قصَّة العتبي الَّتي ذكرها ابن كثير في «تفسيره».

قال ابن كثير (347/2): «وقد ذكر جماعة منهم الشَّيخ أبو نصر ابن الصَّبَّاغ في كتابه الشَّامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال: كنت جالسًا عند قبر النَّبيِّ ﷺ فجاء أعرابي فقال: السَّلام عليك يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [النساء: 64]، وقد جئتك مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك لربِّي ثمَّ أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنت بالقاع أعظمُه
فطاب من طيبهن القاعُ والأكم
نفسي الفداءُ لقبر أنت ساكنُه
فيه العفافُ وفيه الجود والكرم

ثمَّ انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النَّبيَّ ﷺ في النَّوم فقال: «يا عتبي الْحَق الأعرابيَّ فبشِّره أنَّ الله قد غفر له».

قلت: ابن كثير ذكر حكاية الأعرابيِّ هذه بعدما فسرَّ الآية التَّفسير الَّذي يدلُّ عليه ظاهرها، وذكرها بعبارة لو تأمَّلها

(1) «قاعدة جليلة في التَّوسُّل والوسيلة» لابن تيمية (ص228).



القارئ لعلم أنَّ ابن كثير غير فرح بها، وأنَّه سردها جريًا على ما اعتاده تبعًا للمفسِّرين، وإلاَّ فإنَّ عبارته تشعر بعدم اعتداده بها مثل عبارة (وذكر جماعة.. منهم الشَّيخ أبو نصر... الحكاية المشهورة) وإنَّما ساقها على وجه الحكاية للمشهور.

وما دام حالها هكذا فلا تصلح لمعارضة عقيدة ثابتة أو تثبت بها عقيدة، ولا اغترار بمن ذكرها دون رواية لها متصلة بمن تقوم بكلامه الحجَّة، وانظر في نقدها (ص71-72) من كتاب «هذه مفاهيمنا».

قال ابن عبد الهادي: «وفي الجملة: ليست هذه الحكاية المنكورة عن الأعرابي مما يقوم به حجة وإسنادها مظلم مختلف ولفظها مختلف أيضاً، ولو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة على مطلوب المعترض، ولا يصلح الاحتجاج بمثل هذه الحكاية، ولا الاعتماد على مثلها عند أهل العلم وبالله التوفيق». «الصَّارم المنكي» (ص 253).

هذا؛ وإنَّ إسناد الأحكام الشَّرعيَّة إلى المنامات مسلك في الاستدلال لا نرتضي أن نطيل الكلام بذكر مفاسده وعلله في هذا المختصر.

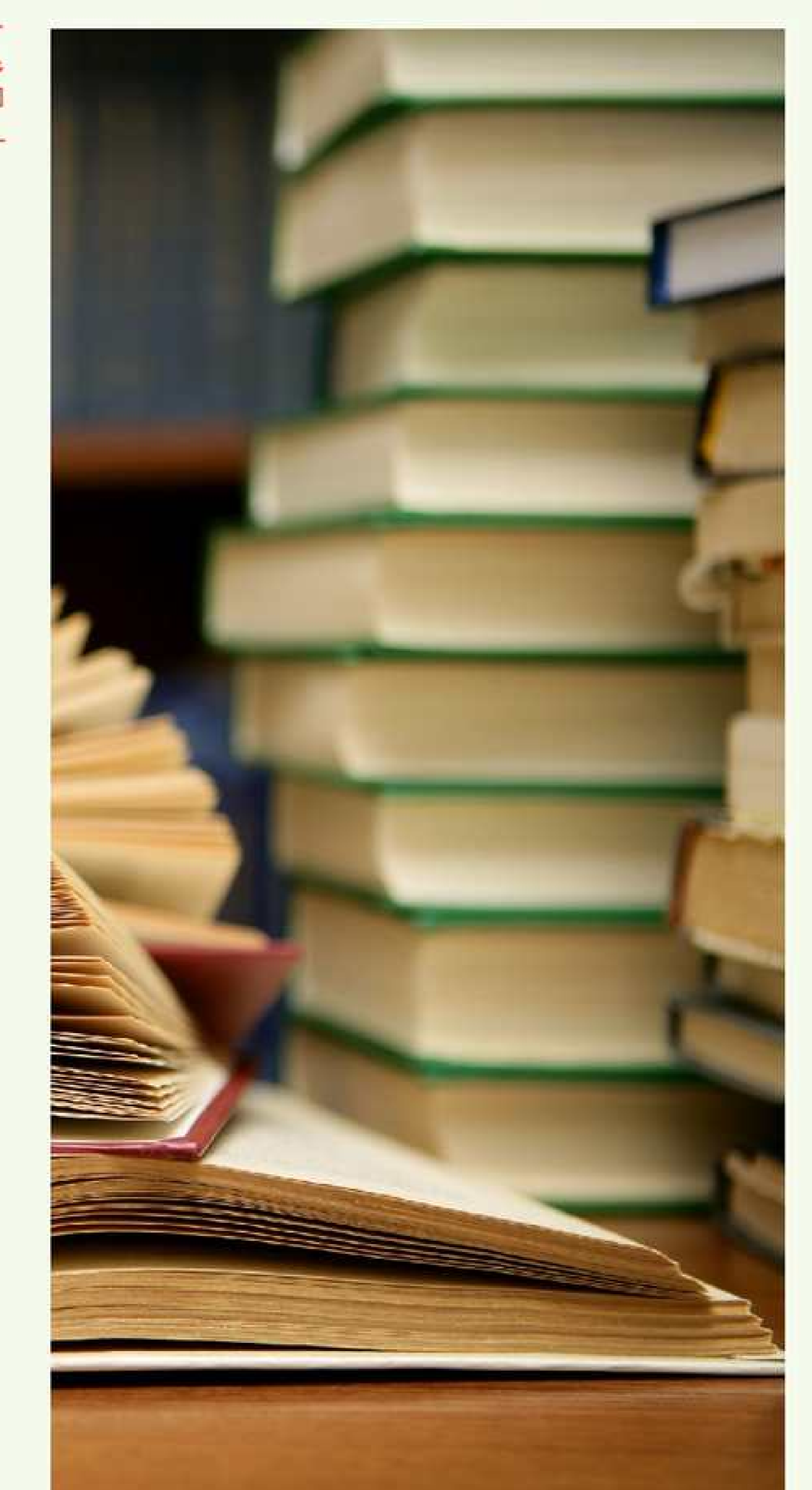
□ □ □



بحوث ودراسات

التوضيح لموقف البخاري من مرويات الأئمة الأربعة في الصحيح

عبد الله بوزنون
إمام أستاذ ـ المدية



لا زال العلماء والمحدِّثون يعتنون بـ«صحيح البخاري» ـ الَّذي هـو أصحُّ كتاب بعد كتاب الله ـ شرحًا ودراسةً، منذ تأليفه إلى يومنا هذا، كلُّ ذلك لأهميَّة هذا الكتاب وجودة تصنيفه وتحرِّي مؤلِّفه في جمع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ.

وإنَّ ممَّا يشدُّ نظر الباحث والمتأمِّل في هـذا الكتاب دقَّة البخاري في اعتماده للرِّجال، وانتقائه للشُّيوخ، قال ابن دقيق العيد: «كان شيخ شيوخنا أبو الحسن المقدسي يقول في الرَّجل يخرَّج عنه في «الصَّحيح»: هذا جاز القنطرة»[1]، ولذلك تجد العلماء يمعنون النَّظر لمعرفة عذر البخاري أو انتقاده في إخراج حديث فلان دون فلان، حتَّى وإن كانوا من كبار الثِّقات وأئمَّة الفقهاء.

ولعلَّ أبرز هؤلاء الرُّواة الَّذين يستوجب الوقوف عند موقف البخاري من روايتهم: الأئمَّة الأربعة، إذ كلُّهم مشهود لهم بالفقه والإمامة في الدِّين وجلُّهم من أئمَّة هذا الشَّأن وهو علم الحديث.

والبخاري له شرطه ونظره، فتراه يخرج عن إمام دون إمام؛ إمَّا لتحرِّيه لعلوٍّ أو لفقد شرط الضَّبط مع توفُّر العدالة والصِّدق.

ولعلَّ في هذا البحث شيئًا من البسط والتَّوضيح لموقف البخاري في هذا الموضوع وعذره في ذلك، وهذا أوان الشُّروع في المقصود مع أوَّل الأئمَّة زمنًا أبي حنيفة النُّعمان رحمه الله.

(1) «الاقتراح» (ص55).

الإمام أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت

(80.150هـ)

لقد كان الإمام أبو حنيفة إمامًا في الفقه حاملاً لرايته، لا يبارى في ذلك، وقد أثنى عليه غير واحد، قال ابن المبارك: «أفقه النَّاس أبو حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله»، وعن يحيي القطَّان قال: «لا نكذب الله ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله»، وقال الإمام الشَّافعي: «النَّاس عيال في الفقه على أبي حنيفة»[2].

لكن ورغم جلالته في الفقه كان ضعيفًا في الحديث، قليل الضَّبط فيه، ولعلَّ عذره في ذلك كثرة اشتغاله بالفقه رحمه الله، والفقهاء الَّذين يعتمدون كثيرًا على الرَّأي لهم قصور في حفظ الحديث، كما قال ابن رجب: «قاعدة: الفقهاء المعتنون بالرَّأي حتَّى يغلب عليهم الاشتغال به: لا يكادون يحفظون الحديث كما ينبغي، ولا يقيمون أسانيده، ولا متونه، ويخطئون في حفظ الأسانيد كثيرًا، ويروون المتون بالمعنى ويخالفون الحفَّاظ في ألفاظه، وربَّما يأتون بالألفاظ تشبه ألفاظ الفقهاء المتداولة بينهم»[3].

وقد ضعَّفه كثير من جهابذة الحديث، وهذه أقوال الأئمَّة فيه:

قال البخاري فيه: «كان مرجئًا سكتوا عنه وعن رأيه وعن حديثه»[4]، وقال ابن المبارك: «كان أبو حنيفة مسكينًا في الحديث»، وقال ابن أبي حاتم: «روى عنه ابن المبارك ثمَّ تركه بأَخَرة، سمعت أبي يقول ذلك»[5]، ومنهم الإمام أحمد، روى العقيلي في «الضُّعفاء» (1411/4) بسند صحيح عنه أنَّه قال: «حديث أبي حنيفة ضعيف»، ومنهم الإمام مسلم صاحب «الصَّحيح» فقال في «الكنى» (963): «مضطرب الحديث، ليس له كبير حديث صحيح»، ومنهم الإمام النَّسائي فقال في «الضُّعفاء والمتروكين» (233): «ليس بالقويِّ في الحديث».

فلهذا أعرض أصحاب الكتب السِّتَّة عن روايته إلاَّ في موضعين، قال المزِّي رحمه الله: «روى له التِّرمذي في كتاب «العلل» من «جامعه» قوله: «ما رأيت أحدًا أكذب من جابر الجعفي، ولا أفضل من عطاء بن أبي رباح»، وروى له النَّسائي حديث أبي رزين، عن ابن عبَّاس، قال: «ليس على من أتى بهيمة حدٌّ»[6].

(2) «تهذيب التَّهذيب» (229/04. 230).
(3) «شرح علل التِّرمذي» (711/2).
(4) «التَّاريخ الكبير» (81/8).
(5) «الجرح والتعديل» (449/8. 450).
(6) «تهذيب الكمال» (445/29).

ولعلَّك ـ أيُّها القارئ ـ قد أدركت سبب عدم إخراج البخاري لحديثه؛ لأنَّه ليس على شرطه في الضَّبط.

ومع ذلك فقد أشار إليه في مواضع في «صحيحه» بقوله عنه: «قال بعض النَّاس»، يريد بذلك الإمام أبا حنيفة في غالب الأحيان.

وهذه هي المواضع الَّتي أشار فيها البخاري تعريضًا بأبي حنيفة في «صحيحه»:

ـ كتاب الزَّكاة: باب في الرِّكاز الخمس، وقال بعض النَّاس: المعدن ركاز مثل دفن الجاهليَّة؛ لأنَّه يقال أركز المعدن، إذا خرج منه شيء. [«الفتح» (458/3)].

ـ كتاب الهبة: باب إذا قال: أخدمتك هذه الجارية على ما يتعارف النَّاس، فهو جائز، وقال بعض النَّاس: هذه عارية. [«الفتح» (302/5)].

ـ باب إذا حمل رجل على فرس فهو كالعمرى والصَّدقة، وقال بعض النَّاس: له أن يرجع فيها. [«الفتح» (303/5)].

ـ كتاب الشَّهادات: وقال بعض النَّاس: لا تجوز شهادة القاذف وإن تاب. [«الفتح» (317/5)].

ـ كتاب الوصايا: باب قول الله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، وقال بعض النَّاس: لا يجوز إقراره لسوء الظَّنِّ به للورثة. [«الفتح» (459/5)].

ـ كتاب الطَّلاق: باب اللِّعان... وقال بعض النَّاس: لا حدَّ ولا لعان. [«الفتح» (543/9)].

ـ كتاب الأيمان والنُّذور: باب إن حلف أن لا يشرب نبيذًا فشرب طلاء أو سكرًا أو عصيرًا، لم يحنث في قول بعض النَّاس، وليست هذه بأنبذة عنده. [«الفتح» (693/11)].

ـ كتاب الإكراه: باب إذا أكره حتَّى وهب عبدًا أو باعه لم يجز، وبه قال بعض النَّاس. [«الفتح» (400/12)].

ـ باب يمين الرَّجل لصاحبه إنَّه أخوه، إذا خاف عليه القتل أو نحوه، وقال بعض النَّاس: لو قيل له لتشربنَّ الخمر أو لتأكلنَّ الميتة أو لنقتلنَّ ابنك أو أباك أو ذا رحم محرَّم، لم يسعه. [«الفتح» (404/12)].

ـ كتاب الحيل: باب في الزَّكاة وأن لا يفرق.. وقال بعض النَّاس: في عشرين ومائة بعير حقتان، فإن أهلكها متعمدًا، أو وهبها أو احتال فيها فرارًا من الزَّكاة، فلا شيء عليه. [«الفتح» (412/12)].

وقال بعض النَّاس في رجل له إبل، فخاف أن تجب عليه الصَّدقة، فباعها بإبل مثلها، أو بغنم، أو ببقر، أو بدراهم، فرارًا من الصَّدقة

بيوم، احتيالاً فلا بأس عليه. [«الفتح» (413/12)].

وقال بعض النَّاس: إذا بلغت الإبل عشرين، ففيها أربع شياه، فإن وهبها قبل الحـول أو باعها، فرارًا واحتيالاً لإسقاط الزَّكاة، فلا شيء عليه. [«الفتح» (413/12)].

- بـاب الحيلة في النِّـكاح: وقال بعض النَّاسـ: إن احتال حتَّى تزوج على الشِّغار، فهو جائز، والشَّرط باطل.

وقـال بعض النَّاس: إن احتال حتَّـى تمتَّع، فالنـكاح فاسد. [«الفتح» (417/12)].

- بـاب إذا غصـب جاريـة فزعم أنَّهـا ماتت، فقضـى بقيمة الجاريـة الميتة، ثمَّ وجدهـا صاحبها، فهي له، ويـردُّ القيمة، ولا تكـون القيمة ثمنًا، وقـال بعض النَّاس: الجاريـة للغاصب لأخذه القيمة. [«الفتح» (422/12)].

- بـاب في النِّـكاح... وقال بعض النَّاسـ: إن لم تستأذن البكر ولم تزوّج، فاحتال رجل فأقام شاهدي زور أنَّه تزوَّجها برضاها، فأثبت القاضي نكاحها، والزَّوج يعلم أن الشَّهادة باطلة، فلا بأس أن يطأها، وهو تزويج صحيح. [«الفتح» (424/2)].

وقال بعض النَّاس: إن احتال إنسان بشاهدي زور على تزويج امرأة ثيِّب بأمرها، فأثبت القاضي نكاحها إيَّاه، والزَّوج يعلم أنَّه لم يتزوَّجها قطُّ، فإنَّه يسعه هذا النِّكاح. [«الفتح» (425/12)].

وقـال بعض النَّاس: إن هوى رجل جارية يتيمة أو بكرًا، فأبت فاحتـال فجاء بشاهدي زور على أنَّـه تزوَّجها، فأدركت فرضيت اليتيمة، فقبل القاضي شهادة الزُّور، والزَّوج يعلم ببطلان ذلك، حلَّ له الوطء. [«الفتح» (425/12)].

- بـاب في الهبـة والشُّفعة، وقـال بعض النَّاسـ: إن وهب هبة ألـف درهم أو أكـثر، حتَّى مكث عنـده سنين، واحتـال في ذلك، ثـمَّ رجـع الواهـب فيها، فـلا زكاة على واحـد منهمـا. [«الفتح» (431/12)].

وقال بعض النَّاس: الشُّفعة للجوار. [«الفتح» (431/12)].

وقـال بعض النَّاسـ: إذا أراد أن يبيع الشُّفعـة فله أن يحتال حتَّى يبطل الشّفعة. [«الفتح» (433/12)].

وقـال بعض النَّاسـ: إن اشترى نصيب دار، فـأراد أن يبطل الشّفعـة، وهـب لابنـه الصَّغـير ولا يكـون عليه يمـين. [«الفتح» (433/12)].

- بـاب احتيـال العامـل ليهدى له... وقـال بعض النَّاس: إن اشترى دارًا بعشرين ألف درهم، فلا بأس أن يحتال حتَّى يشتري الدَّار بعشرين ألف درهم. [«الفتح» (436/12)].

- كتـاب الأحكام: بـاب الشَّهادة على الخـطِّ المختوم... وقال بعـض النَّاسـ: كتـاب الحاكـم جائـز إلاَّ في الحـدود. [«الفتح» (175/13)].

- بـاب ترجمة الحكَّام، وهل يجوز ترجمان واحد، وقال بعض النَّاس: لا بدَّ للحاكم من مترجمين. [«الفتح» (230/13)]

وفي هـذا الأخير تعيـنٌ بأنَّه محمَّد بن الحسـن كما قال ابن حجـر رَحِمَهُ اللهُ: «والمـراد بـ«بعض النَّاسـ» محمَّد ابـن الحسن فإنَّه الَّـذي «اشـترط أن لا بـدَّ في التَّرجمة مـن اثنين ونزَّلهـا منزلة الشَّهادة وخالف أصحابه الكوفيِّين» ووافقه الشَّافعي فتعلَّق بذلك مغلطـاي فقال: فيه ردٌّ لقول مـن قال: إنَّ البخاري إذا قال: «قال بعضـ النَّاس» يريد الحنفيَّة وتعقَّبه الكرماني فقال: «يحمل على الأغلـب أو أراد هنـا بعض الحنفيَّـة لأنَّ محمَّدًا قائـل بذلك ولا يمنـع ذلك أن يوافقه الشَّافعي كمـا لا يمنع أن يوافق الحنفيَّة في غير هـذه المسألة بعض الأئمة» اهـ بلفظه من كتابه «فتح الباري» (231/13ـ 232).

وأحسـن مـا نختم به الـكلام على من يشنِّع علـى البخاري بتعريضـه لأبي حنيفة قـول شمس الحقِّ العظيم آبادي في كتابه «رفـع الالتباسـ عـن بعض النَّاسـ» ـ ط. دار الصَّحـوة، قـال (صـ155): «ألم تنظـر إلى صنيع الإمام البخـاري رَحِمَهُ اللهُ فإنَّه وإن حثَّـه على تلك التَّعاريض حميَّـة السُّنَّة وانتصار كتاب الله، لكنَّـه كيف ذهب في هـذا المذهب ذهاب الأدب! حيث لم يصرِّح باسمـه الشَّريـف، وعرَّض بلفـظ «بعض النَّاس» كـي يعلمه من يعلمـه، ولا يعلمه مـن لا يعلمه، وهكذا صنيع مـن يدَّعي نصرة السُّنَّة أن لا يتفوَّه في حقِّه بسوء أدب، فلا يجوز لأحد أن يترخَّص مـن ذلك أن يقول شيئًـا في حقِّه، ما لم يرزق من إخلاص النِّيَّة وحسـن الأدب، كمـا رزق الإمـام البخـاري رَحِمَهُ اللهُ، كيـف وهمـا أسـدان يقتتلان! فما للثَّعالب والذِّئاب أن يزدحموا فيه؟ أو هما بطـلان قويَّان يحاربان! فما للنِّسـاء والصِّبيان أن يدخلوا فيه؟ إن لم يتنكَّبوا هلكوا وقُتلوا» اهـ.



الإمام مالك بن أنس (93.179هـ)

إنَّ ممَّا ميَّز الإمام مالكًا رحمه الله صحَّةُ حديثه وانتقاؤُه للرِّجال، كما قال عنه ابن عيينة: «ما كان أشدّ انتقاد مالك للرِّجال وأعلمه بشأنهم»؛ ممَّا جعل له مكانة عند البخاري حتَّى كان يعدُّ إسناده أصحَّ إسناد، قال محمَّد ابن إسحاق الثَّقفي السِّراج: سألت محمَّد بن إسماعيل البخاري عن أصحِّ الأسانيد فقال: «مالك عن نافع عن ابن عمر»[7].

وقد ظهرت هذه المكانة في اعتماد البخاري على أحاديثه، حيث روى له في «صحيحه» وأكثر عنه[8]، قال الباجي: «أخرج له البخاري في باب بدء الوحي والعلم والإيمان وغير موضع عن عبد الله بن يوسف وإسماعيل بن أبي أويس ومعن وقتيبة وغيرهم عنه عن الزُّهري ونافع وعبد الله بن دينار وأبي الزِّناد وغيرهم»[9].

وقد تتبَّع البخاري أحاديثه فأخرج عنه بواسطة جماعة من تلاميذه كإسحاق بن محمد الفَرْوي وإسماعيل بن أبي أويس وعبد الله بن مسلمة القعنبي وعبد الله بن يوسف التنيسي وعبد العزيز بن عبد الله الأويسي وأبو نعيم الفضل بن دكين وقتيبة ابن سعيد البلخي ويحيى ابن عبد الله بن بكير ويحيى بن قزعة ويحيى بن يحيى النيسابوري وأبو الوليد الطَّيالسي[10].

بل أكثر من ذلك كان يتحرَّى الرِّواية عنه وإن نزل الإسناد إليه حتَّى «أنَّ البخاري إذا وجد حديثًا يؤثر عن مالك لا يكاد يعدل به إلى غيره، حتَّى أنَّه يروي في «الصَّحيح» عن عبد الله ابن محمد بن أسماء عن عمِّه جويرية عن مالك»[11].

وقد اختار البخاري في روايته عن مالك رواية عبد الله ابن يوسف التِّنيسي حيث أكثر من حديث مالك بواسطته حيث «قال بعض الفضلاء: اختار أحمد بن حنبل في «مسنده» رواية عبد الرَّحمن بن مهدي والبخاري رواية عبد الله بن يوسف التِّنيسي ومسلم رواية يحيى بن يحيى التَّميمي النَّيسابوري، وأبو داود رواية القعنبي والنَّسائي رواية قتيبة بن سعيد»[12].

كما أنَّه أقلَّ من رواية آخرين لوجود خلل في الضَّبط أو الرِّواية فمثلاً أقلّ من رواية يحيى بن عبد الله بن بُكير، ولعلَّ سبب ذلك أنَّه كما قال القاضي عياض في «الإلماع» (ص77): «لكن عدم الثِّقة بقراءة مثله [أي قراءة حبيب إذ أخذ يحي «الموطَّأ» بقراءته] مع جواز الغفلة والسَّهو عن الحرف وشبهه وما لا يخلُّ بالمعنى مؤثِّرة في تصحيح السَّماع كما قالوه، ولهذه العلَّة لم يخرج البخارى من حديث ابن بكير عن مالك إلاَّ القليل وأكثر عنه عن اللَّيث قالوا: لأنَّ سماعه كان بقراءة حبيب وقد أنكر هو ذلك».

وممَّا يذكر في هذا الجانب. أي اعتناء البخاري برواية مالك في «صحيحه». أنَّه أحيانًا يُثَنِّي بأحاديث مالك؛ لأنَّ رواياته فيها ما يبيِّن إجمال ما في غيرها الروايات[13]، ومثال ذلك ما أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (550) من حديث أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يصلِّي العصر والشَّمس مرتفعة حيَّة فيذهب الذَّاهب إلى العوالي فيأتيهم والشَّمس مرتفعة، وبعض العوالي من المدينة على أربعة أميال أو نحوه»، رواه من طريق شعيب بن أبي حمزة ثمَّ أعقبه برواية مالك (551) فقال: حدَّثنا عبد الله ابن يوسف قال: أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك قال: «كنَّا نصلِّي العصر ثمَّ يذهب الذَّاهب منَّا إلى قباء فيأتيهم والشَّمس مرتفعة»، فالرِّواية الأولى لم يقع التَّصريح فيها أيُّ «العوالي» هي المقصودة؟ فأتى برواية مالك بعدها ليبيِّن الإجمال وأنَّها «قباء»، قال ابن رُشيد عن هذا الموضع: «قضى البخاري بالصَّواب لمالك بأحسن إشارة وأوجز عبارة؛ لأنَّه قدَّم أوَّلا المجمل ثمَّ أتبعه بحديث مالك المفسّر المعيّن» اهـ [«فتح الباري» (38/2)].

ونختم كلامنا ببيان مكانة فقه مالك عند البخاري حيث أثرى «صحيحه» بذكر مذهبه في مواضع، نذكر منها:

قال البخاري: ورأى الحسن والثَّوري ومالك القراءة (يعني على العالم) جائزة. [«الفتح» (196/1)].

ورأى عبد الله بن عمر ويحيى بن سعيد ومالك ذلك جائزًا (يعني المناولة) [«الفتح» (203/1)].

وسئل مالك أيجزئ أن يمسح بعض الرَّأس فاحتجَّ بحديث عبد الله بن زيد. [«الفتح» (379/1)].

وقال مالك وابن إدريس: الرِّكاز دفن الجاهلية، في قليله وكثيره الخمس. [«الفتح» (3 /458)].

وقال مالك وغيره: ينحر هديه، ويحلق في أي موضع كان، ولا

(7) «تهذيب الكمال» (111/27).

(8) عددتُ الأحاديث الَّتي يرويها عن مالك في «الصَّحيح» بالمكرَّر فوجدتها تربو على (630) حديثًا، والله أعلم.

(9) «التَّعديل والتَّجريح» (696/2 (600)، وانظر: «رجال البخاري» للكلاباذي (219/2).

(10) انظر: «تهذيب الكمال» (93/27).

(11) أفاده السُّيوطي، انظر: «تنوير الحوالك» (7/1).

(12) نقل النَّصَّ السُّيوطي في «تنوير الحوالك» (10/1) لكنَّه أبهم القائل.

(13) أفاده الشَّيخ الطَّاهر بن عاشور، وعزاه لبعض شرَّاح «صحيح البخاري»، انظر: «كشف المغطَّى» (ص41).

قضاء عليه. [«الفتح» (4/ 15)].

وقال مالك: العريَّة أن يعري الرَّجلُ الرَّجلَ النَّخلة ثمَّ يتأذَّى بدخوله عليه فرخَّص له أن يشتريها منه بتمر. [«الفتح» (493/4)].

قال مالكٌ: وصيام العبد: شهران (أي في كفَّارة الظِّهار). [«الفتح»(535/9)].

الإمام محمَّد بن إدريس الشَّافعي
(150. 204هـ)

لقد كان الشَّافعي من الأئمَّة الثِّقات، قد وثَّقه غير واحد من الأئمة قال أبو زرعة الرَّازي: «ما عند الشَّافعي حديث غلط فيه»، وقال أبو داود: «ليس للشَّافعي حديث أخطأ فيه»، وقال الزَّعفراني عن يحيى بن معين: «لو كان الكذب له مطلقًا لكانت مروءته تمنعه أن يكذب»، وقال مسلم بن الحجَّاج في كتابه «الانتفاع بجلود السِّباع»: «وهذا قول أهل العلم بالأخبار ممَّن يعرف بالتَّفقُّه فيها والاتِّباع لها، منهم يحيى بن سعيد وابن مهدي ومحمَّد بن إدريس الشَّافعي وأحمد وإسحاق»، وقال النَّسائي: «كان الشَّافعي عندنا أحد العلماء ثقة مأمونا»[14].

ومع ثقته وضبطه لم يخرج له البخاري في «صحيحه»؛ وذلك ليس طعنًا في روايته أو قدحًا في عدالته ولكن لما عُرف عن البخاري من تحرِّيه للعلوِّ في الأسانيد الَّتي يرويها في «صحيحه» كعادة غيره من المحدِّثين، فقد كان العلوُّ عندهم مطلبًا عزيزًا وقصدًا شريفًا، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: «طلبُ الإسناد العالي سنَّةٌ عمَّن سلف»[15]، وقال محمَّد بن أسلم الطُّوسي الزَّاهد: «قُربُ الإسناد قُربٌ أو قُربة إلى الله عزَّ وجل»[16].

ولشدَّة تحرِّي البخاري للعلوِّ في الإسناد ترك الرِّواية عن رواة ثقات لاستغنائه عنهم بالرِّواية عمَّن هو أعلى منهم سندًا وليس طعنًا في عدالتهم، وهذا كما حصل له مع بعض الثِّقات من أقرانه ممَّن ينزل في روايته إذا روى عنهم، وأذكر على سبيل المثال: أحمد بن الحسن بن جنيدب أبا الحسن التِّرمذي لم يخرج له البخاري؛ لأنَّه ينزل في الرِّواية عنه، قال المعلِّمي منبِّهًا على ذلك: «أمَّا قلَّة رواية البخاري عنه فلأنَّه من أقرانه، والبخاري كغيره من الأئمَّة يتحرَّى علوَّ الإسناد، فلا يكاد يروي في «الصَّحيح» عمَّن هو أكبر منه بقليل فضلاً عن أقرانه إلاَّ ما أعوزه أن يجده عند من هو في طبقة كبار شيوخه»[17].

وإذا تقرَّر هذا المنهج الَّذي سار عليه البخاري في «صحيحه» يتَّضح بذلك جليًّا سبب تركه للرِّواية عنه، وأنَّه ما تركه رغبةً عنه، وإنَّما طلبًا للعلوِّ من حديث غيره، قال الخطيب البغدادي: «والَّذي نقول في تركه الاحتجاج بحديث الشَّافعي، إنَّما تركه لا لمعنى يوجب ضعفه لكن غني عنه بما هو أعلى منه وذلك أنَّ أقدم شيوخ الشَّافعي الثِّقات الَّذين روى عنهم: مالك بن أنس وعبد العزيز ابن محمَّد الدَّراوردي وداود بن عبد الرَّحمن العطَّار وسفيان ابن عيينة، والبخاري لم يدرك الشَّافعيَّ، وروى عن مَن كان أكبر منه سنًّا وأقدم منه سماعًا، مثل مكِّي بن إبراهيم البلخي وعُبَيد الله بن موسى العبسي وأبي عاصم الشَّيباني ومحمَّد بن عبد الله الأنصاري وخَلْق يطول ذكرهم، وهؤلاء الَّذين سمَّيتهم رَوَوْا عن بعض التَّابعين، وحدَّثه أيضًا عن شيوخ الشَّافعي جماعة كعبد الله ابن مسلمة القعنبي وعبد الله بن يوسف التنيسي وإسماعيل ابن أبي أويس وعبد العزيز الأويسي ويحيى بن قزعة وأبي نعيم الفضل بن دُكين وخالد بن مخلد وأحمد ابن يونس وقتيبة ابن سعيد وهؤلاء كلُّهم رووا عن مالك... فلم ير أن يروي عنه حديثًا عن رجل عن الشَّافعي عن مالك وقد حدَّثه به غير واحد عن مالك كما رواه الشَّافعي مع كون الَّذي حدَّثه به أكبر من الشَّافعي سنًّا وأقدم سماعًا..!»[18].

وإن كان البخاري لم يرو عن الشَّافعي في «صحيحه» إلاَّ أنَّه ذكر مذهبه باسمه في موضعين (كما سبق عند ذكر مالك):

- كتاب الزَّكاة: باب في الرِّكاز الخمس، وقال مالك وابن إدريس: الركاز دفن الجاهليَّة، في قليله وكثيره الخمس. [«الفتح» (458/3)].

- كتاب البيوع: باب تفسير العرايا... وقال ابن إدريس: العريَّة لا تكون إلاَّ بالكيل من التَّمر يدًا بيد لا يكون بالجزاف... [«الفتح» (15/4)].

(14) «تهذيب التَّهذيب» (499/3).
(15) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب (117).
(16) «الجامع لأخلاق الراوي» (115).

(17) «التَّنكيل» (104/1).
(18) كلامه هذا في رسالته الموسومة بـ«الاحتجاج بالشَّافعي» (ص38)، وبهذا البيان يندفع قول بدر الدِّين العيني في كتابه «عمدة القاري» (398/24) حيث قال: «على أنَّ البخاري لا يراعي الشَّافعي قطُّ، والدَّليل عليه أنَّه ما روى عنه قطُّ في «جامعه الصَّحيح» ولو كان يعترف به لروى عنه كما روى عن الإمام مالك جملةً مستكثرة..» اهـ، فيقال: وهذا مسلم قد زكَّى الشَّافعي كما سبق ولم يرو عنه، فلا تلازم بين ما ذكر والله أعلم.

الإمام أحمد بن حنبل (164. 241هـ)

لقد كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ قبلة للمحدِّثين في زمانه حيث رحل إليه المحدِّثون من كلِّ صوب وحدب والبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ من هؤلاء الَّذين رحلوا إلى الإمام أحمد ولزموه حيث كان يتردَّد إليه ويستفيد منه، فهو يحكي لنا عن مجالسته للإمام أحمد قائلاً: «دخلت بغداد آخرَ ثمان مرَّات كلّ ذلك أجالس أحمد بن حنبل فقال لي في آخر ما ودَّعته: يا أبا عبد الله! تتركُ العلمَ والنَّاسَ، وتصير إلى خراسان، قال البخاري: فأنا الآن أذكر قوله»، بل كان أحمد يُثني على تلميذه فيقول: «ما أخرجت خراسان مثل محمَّد بن إسماعيل البخاري»[19].

وقد استفاد البخاري من شيخه وتأثَّر به إنْ في العقيدة والسُّنَّة أو إنْ في الحديث أو غير ذلك ممَّا هو مذكور في كتب التَّراجم.

والَّذي يهمُّنا في هذا الموضع روايته عنه الحديث، فأمَّا روايته عنه خارج «الصَّحيح»، فكما قال عنه الباجي أنَّه: «روى عنه في غير الجامع غير شيء»[20].

كما أنَّه أخرج له في «صحيحه»؛ اتَّفق العلماء على موضعين واختلف في الثَّالث، والموضعان هما:

ـ الأوَّل في كتاب المغازي: باب كم غزا النَّبيُّ ﷺ برقم (4473)، قال: حدَّثني أحمد بن الحسن، حدَّثنا أحمد بن محمَّد بن حنبل ابن هلال، حدَّثنا معتمر بن سليمان عن كهمس عن ابن بريدة عن أبيه قال: «غزا مع رسول الله ﷺ ستَّ عشرة غزوة»، وقد ذكر الكلاباذي أنَّه الحديث الواحد الَّذي أخرج له ـ يقصد في الأصول ـ وأمَّا عن الباقي فقال عنها: «إلَّا ما لعلَّه استشهد به في بعض المواضع»[21].

ـ الحديث الثَّاني في كتاب النِّكاح: باب ما يحلُّ من النِّساء وما يحرم، رقم (5105)، وقال لنا أحمد بن حنبل: حدَّثنا يحيى ابن سعيد عن سفيان، حدَّثني حبيب عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس: «حرم من النَّسب سبع ومن الصِّهر سبع..» إلخ.

واختلف في الموضع الثَّالث: هل المذكور في الإسناد أحمد هو أحمد ابن حنبل أم لا؟ لأنَّ البخاري أبهمه ولم يعيِّنه، فلهذا وقع الخلاف.

حيث قال البخاري: كتاب اللِّباس[22]: باب هل يجعل نقش الخاتم ثلاثة أسطر برقم (5878): قال حدَّثني محمَّد بن عبد الله الأنصاري قال: حدَّثني أبي، عن ثمامة، عن أنس: «أنَّ أبا بكر لمَّا استخلف كتب له، وكان نقش الخاتم ثلاثة أسطر: محمَّد: سطر، ورسول: سطر، والله: سطر»، قال أبو عبد الله: وزادني أحمد: حدَّثنا الأنصاري، قال: حدَّثني أبي، عن ثمامة، عن أنس قال: كان خاتم النَّبيِّ ﷺ في يده، وفي يد أبي بكر بعده، وفي يد عمر بعد أبي بكر، فلمَّا كان عثمان جلس على بئر أريس، قال: فأخرج الخاتم يعبث به، فسقط، قال: فاختلفنا ثلاثة أيَّام مع عثمان فننزح البئر، فلم نجده».

وهنا اسم أحمد في الإسناد أبهم، وقد جزم الحميدي في كتابه «الجمع بين الصَّحيحين» (21/1) أنَّه أحمد بن حنبل وتبعه ابن القيسراني في «الجمع بين رجال الصَّحيحين» (5/1) وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (244/2) والمزِّي في «تحفة الأشراف» حيث قال: «وقال في اللِّباس: وزادني أحمد بن حنبل، عن الأنصاري... فذكر قصَّة الخاتم...». (232/7).

لكن ابن حجر توقَّف في نسبته حيث قال: «وأحمد المذكور جزم المزِّي في «الأطراف» أنَّه أحمد بن حنبل، لكن لم أرَ هذا الحديث في «مسند أحمد» من هذا الوجه أصلاً» [«الفتح» (405/10)]، ولم يعيِّنه أبو علي الجياني[23] كما لم يذكر هذا الحديث بعض من نقل مرويَّات الإمام أحمد في «الصَّحيح»[24]، وإن كانت هذه المسألة تحتاج إلى تتبُّع أوسع، والله أعلم.

وبعد ذكر هذه الأحاديث الثَّلاثة يجدر بنا الجواب عن سؤال مهمٍّ وهو ما سبب ترك البخاري الرِّواية عن أحمد بن حنبل سوى النّزر اليسير رغم تردُّده عليه وحاجته إلى حديثه؟!

والجواب عند ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث أفصح عنه قائلاً: «وكأنَّه لم يكثر عنه؛ لأنَّه في رحلته القديمة لقي كثيرًا من مشايخ أحمد فاستغنى بهم، وفي رحلته الأخيرة كان أحمد قد قطع التَّحديث فكان لا يحدِّث إلاَّ نادرًا، فمن ثمَّ أكثر البخاري عن علي ابن المديني دون أحمد» اهـ [«الفتح» (14 / 351)].

▫ ▫ ▫

وفي الأخير فدونك هذه الفوائد والشَّوارد الَّتي جمعتها من كتب أهل العلم وليس لي فيها سوى النَّقل والجمع، أسأل الله العظيم أن ينفعنا بما علمنا ويرزقنا العمل والإخلاص؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

(19) الأثران في «طبقات الحنابلة» (257/2).

(20) «التَّعديل والتَّجريح» (320/1).

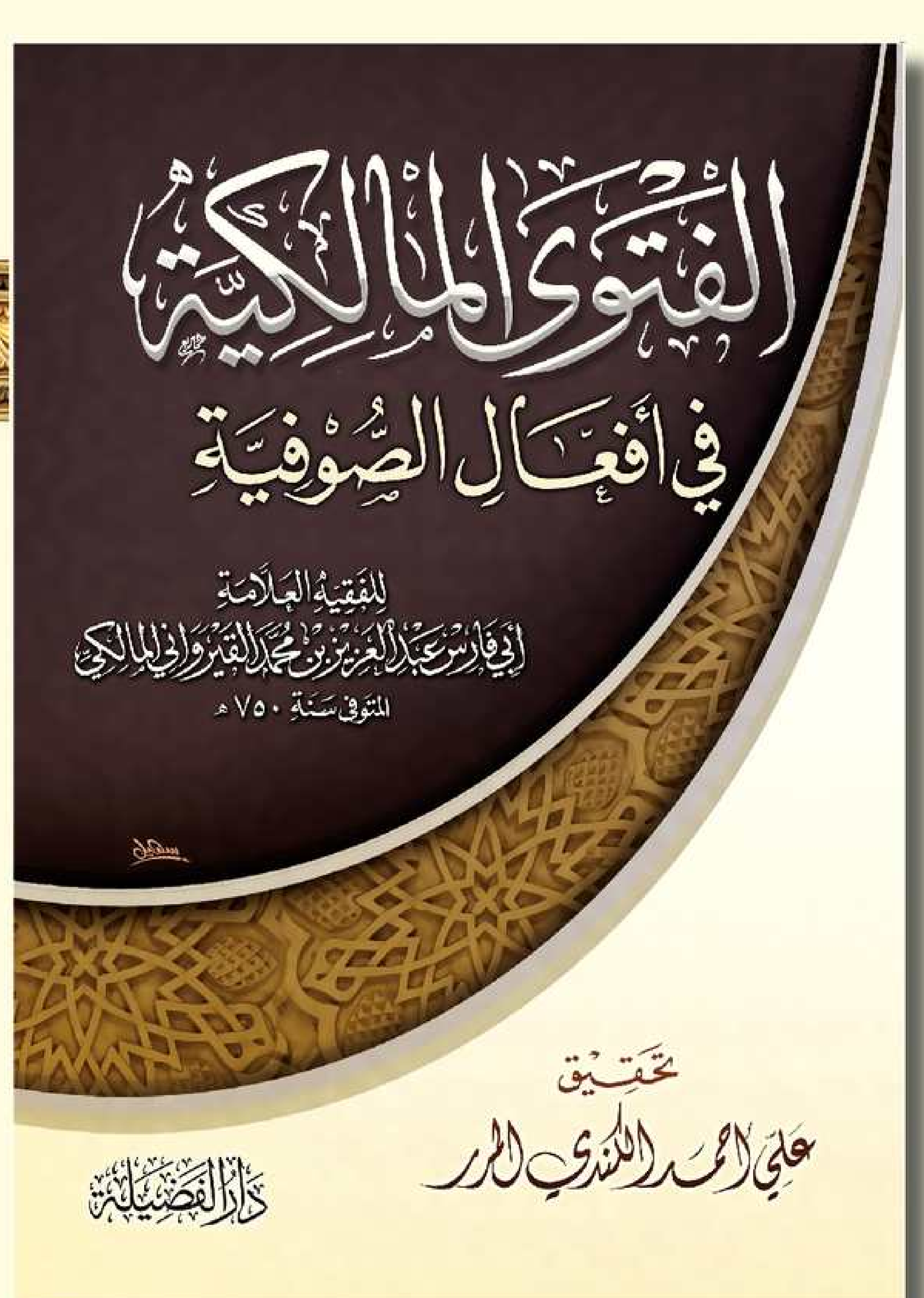
(21) انظر: «رجال البخاري» (43/1)، ولعلَّ مقصود ابن منده لمَّا صرَّح في كتابه: «أسامي مشايخ الإمام البخاري» (ص28) أنَّ البخاري روى عن أحمد حديثًا واحدًا نفس مقصود الكلاباذي السَّابق ذكره.

(22) نسب الحميدي في كتابه «الجمع بين الصَّحيحين» (21/1)، وابن القيسراني في كتابه «الجمع بين رجال الصَّحيحين» (5/1) الموضع إلى كتاب الصَّدقات وهو كما ترى في كتاب اللِّباس، وتبعهما العيني، انظر «عمدة القاري» (399/24)، لكنَّه أتى به على الصَّواب في (102/18).

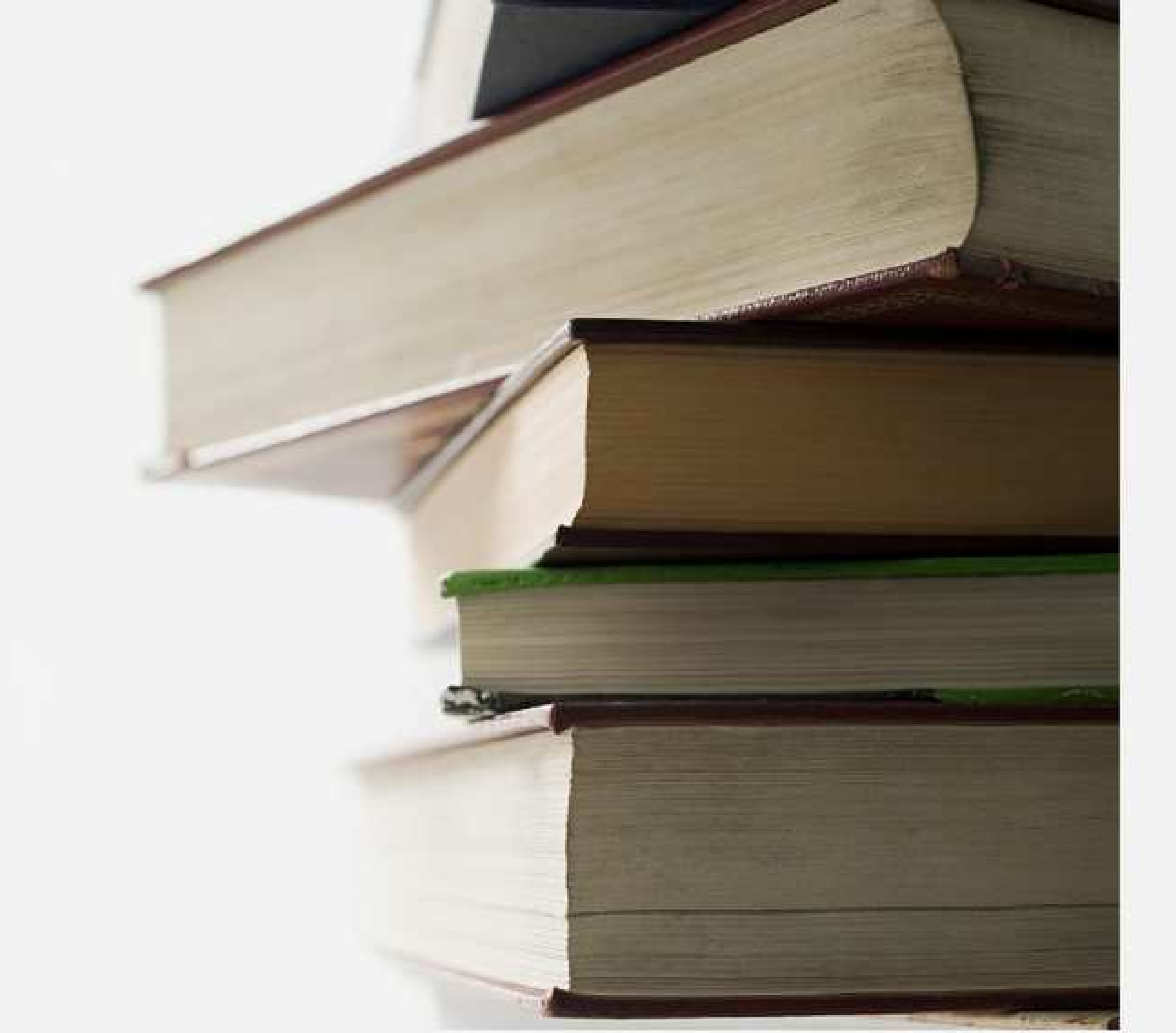
(23) نقل ذلك عنه ابن حجر في «مقدمة الفتح» (354/1).

(24) كابن منده في «أسامي مشايخ الإمام البخاري» (ص28)، والذَّهبي في «سير أعلام النُّبلاء» (181/11).





حي باحة (3)، رقم (28) الليدو . المحمدية . الجزائر
الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021) / الجوال: 92 99 06 (0559)
التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)
البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com
الموقع على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com



د. محمد بن هادي المدخلي

أجرى الحوار: عمر الحاج مسعود

هذا هو الجزء الثاني من الحوار الذي أجريناه مع الشيخ الدكتور محمد ابن هادي المدخلي ببيته بالمدينة النبوية، ويتضمَّن أجوبة على أسئلة علمية دعوية ومنهجية متنوعة:

الأجوبة العلمية على الأسئلة الجزائرية

بارك الله فيك شيخنا؛ هل تذكرون لنا أسماء بعض العلماء الَّذين تنصحون الشَّباب بالأخذ عنهم والرُّجوع إليهم، وهل يجوز أخذُ بعض العلوم عن أهل البدع للضَّرورة؟

هذا السُّؤال ـ كما يُقال ـ الجواب عليه هو المِحَكُّ؛ فإنَّ العلوم يحصل الانتفاع بها إذا أُخذت عن أهلها المتأهِّلين، وهُم أهل السُّنَّة، لا شكَّ في ذلك.

قال الإمام مالك رحمه الله: «لا يُؤخذ العلمُ عن أربعة: سَفيه يُعلن السَّفَه، وإن كان أروى النَّاس، وصاحب بدعة يدعُو إلى هَواه، ومَن يَكذب في حَديث النَّاس، وإن كنتُ لا أتَّهمه في الحديث، وصالح عابد فاضل، إذا كانَ لا يحفظ ما يحدث به».

فينبغي لطالب العلم أن يعتَني بهذا، هذا كلام مالك، ومثله الشَّافعي وغيرهم رحمهم الله تعالى، كلُّهم تواطؤوا على هذا.

والإمام أحمد رحمه الله قال: «ثلاثة لا يؤخذ عنهم العلم...».

الشَّاهد عباراتهم متظافرة في هذا، هذا الباب هو المحكُّ، فلا بدَّ أن يؤخذ على عالم موثوق في دينه؛ لأنَّ الموثوق في دينه هو الَّذي تأخذ عليه بأمان وباطمئنان، والمعروف بعلمه أيضًا هو الَّذي تأخذ عنه بأمان واطمئنان؛ لأنَّه أهل ومتأهِّل.

أذكر بعض مَن أعرف من العلماء المعاصرين، ولا أذكر كلَّ الَّذي أعرف، ومن لم أعرفه في الأقطار الأخرى فأصحابها أعرف بهم، فمثلاً عندنا في المملكة من أشهر العلماء الآن: الشَّيخ صالح اللُّحيدان، الشَّيخ صالح الفوزان، والشَّيخ زيد المدخلي، الشَّيخ ربيع ابن هادي المدخلي ـ وهو عَلَم من أعلام السُّنَّة ـ، وكلُّ هؤلاء من أعلام السُّنَّة رحمهم الله تعالى، لكن الشَّيخ معروف بجهاده ومنافحته عن السُّنَّة وعن أهلها والرَّدِّ على البدع وأهلها، والرَّدِّ على المخالفين المعاصرين، وهو في هذا الباب معروف ومشهور، حفظه الله تعالى.

وفي المدينة كذلك: الشَّيخ عبد المحسن العبَّاد، والشَّيخ علي بن ناصر فقيهي، فالشَّاهد أنَّ هؤلاء مِن أشهر العلماء الباقين في زماننا، وليس يعني هذا أنَّه لا يوجد غيرهم، هؤلاء من الأعلام المعروفين الَّذين انتصبوا للتَّعليم وإفادة النَّاس، ونحن ننصح النَّاس بالرُّجوع إلى أمثال هؤلاء، ونجعلهم مثالاً؛ لأنَّ الكبار في العصر يمثَّل بهم لطلب العلوِّ، فلا ينبغي للطَّالب بعد أن يتأهَّل أن يترك الكبار ويذهبَ إلى مَن دونهم، نَعم؛ يأخذ عمَّن دونهم، فإذا تأهَّل ارتفَع عليهم، فإذا تحصَّل له ذلك فهذا الَّذي نوصيه به، ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ التَّوفيق للجميع.

ولا تخلو بلاد الإسلام ـ ولله الحمد ـ مـن أهل العلم ومن القائمين بالسُّنَّة، في بلدكم الجزائر أنتم أعرفُ بأهلها، لكن ذكرتُ هذا تمثيلاً، وممَّن ماتوا ولا يزال النَّاس ينتفعون بعلمهم: كشيخ الجميع الشَّيخ عبد العزيز بن باز، وشيخ الجميع الشَّيخ محمَّد ناصر الدِّين الألباني، وشيخ الجميع الشَّيخ ابن عثيمين، رحم الله الجميع، وشيخنا العلاَّمة الشَّيخ أحمد النَّجمي بالقطر الجنوبي من المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، هؤلاء ـ رحمهم الله تعالى ـ علاماتٌ، ومناراتٌ، يهتَدى بها ويقتَدى بهم فيها.

¤ ¤ ¤

شيخنا: لا يخفى عليكم واقع بعض طلبة العلم فضلاً عن غيرهم، وما وقع لهم من فتور وفشل في باب طلب العلم والدَّعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فما هي نصيحتكم لهم؟

لا شكَّ أنَّ الفتور يعتري الإنسان، فإذا اعترى الإنسان شيء من الفتور فلا يجوز له أن يستسلم له، ولكن الواجب عليه أن يُكمِّل نفسه، فيعطيها شيئًا من الرَّاحة، ويستجمَّ بشيء من المباح، الحمد لله هذا ينفِّس به عن نفسه، فيقبل على مثل طرائف الأشعار وغرائب الأخبار، والقراءة فيها سَلوَة، فمثلاً يقرأ في كتاب «بهجة المجالس وأنس المجالس» للحافظ أبي عمر ابن عبد البرِّ، ويقرأ كذلك في الكتب الَّتي حوت النَّوادر والغرائب من أيَّام العرب وأخبارها وأشعارها، مثل «عيون الأخبار» لابن قتيبة، ومثل «الكامل في الأدب واللُّغة»، فيُجِمُّ نفسه، فإذا أجَمَّ بهذا عاد إلى العلم.

أمَّا إذا كان هذا العارض الَّذي يعرض له سببًا في الانصراف عن العلم بالكليَّة، فهذا من سوء الحال أن يتعلَّم الإنسان ويشرعَ في الطَّلب والتَّحصيل ثمَّ بعد أن عرفَ انحرفَ، هذا من علامات السُّوء ـ نسأل الله العافية والسَّلامة ـ.

والسَّبب في هذا ـ في نظري، والعلم عند الله تبارك وتعالى ـ: أنَّه حقيقةً ما طلب العلم على الطَّريقة الصَّحيحة، وإلاَّ فالَّذي يطلب العلم على الطَّريقة الصَّحيحة يجد حلاوتَه، وطلبُه على الطَّريقة الصَّحيحة على النَّحو الَّذي ذكرنا[1]، يأخذ العلوم بترقٍّ، يأخذ المتون المشهورة فيها، يحفظها، يأخذها على العالم المفيد النَّاصح، أو قُل: الأستاذ أو قُل: الشَّيخ المفيد النَّاصح، والشَّيخ المفيد النَّاصح هو بمنزلة الوالد لطالب العلم؛ يرعاه ويتعهَّده، فإذا رأى منه فتورًا شدَّ من عزمه، وإذا رأى منه انصرافًا أو انحرافًا أعاده إلى الجادَّة، هذا الَّذي نقوله، أمَّا الَّذي يأخذ العلمَ من بطون الكتب، أو يتخيَّر، اليوم يجلسُ عند فلان وغدًا عند فلان، وبعد غدٍ عند فلان، وزِدْ على ذلك ما نحن فيه في هذا العصر من شبكة المعلومات والنَّظر فيها، هذا لا يستفيد، وهو الَّذي لم يذق العلم في الحقيقة، والَّذي لا يذوق الشَّيء لا يعرفه، وقديمًا قيل: ـ وهي من الألفاظ المعروفة عند الصُّوفيَّة ـ «من ذاق عرفَ، ومن حُرم انصَرف»، فلو ذاق حلاوةَ العلم ما انصرف ولا غادره، ونسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يثبِّتنا بفضله ومنِّه وكرمه.

لا شكَّ أنَّ هذا الانحراف له أسباب من أعظم أسبابه ما ذكرت لكم؛ عدم سلوك الطَّريق الصَّحيح في طلب العلم، وعدم وجود المربِّي الصَّحيح الَّذي يُنتفَع به، وربَّما كانت الرُّفقة، فإنَّ رُفقة البطَّالين من أعظم ما يكونُ في انحراف الإنسان، وأيضًا رُفقة أهل الأهواء والبدع الَّذين يزهِّدونه في السُّنَّة وفي العلم ونحو ذلك، فمثلاً لو صاحبَ جماعةَ التَّبليغ؛ ترك العلم وخرج معهم فعاد صفرًا، وزهَّدوه فيه، ولو صاحب السِّياسيِّين كالإخوان المسلمين والفروع الَّتي انشقَّت عنهم: قطبيَّة، سروريَّة، ومن تكفيريَّة ومن هجرة وجهاد ونحو ذلك، زهَّدوه في العلم وذلك بتزهيده في أهله وطعنهم فيهم، وتصويرهم بأسوأ الصُّور وأقبحها، فحينئذ ينحرفُ عنه، فنسأل الله العافية والسَّلامة.

¤ ¤ ¤

شيخنا الفاضل؛ تَمُرُّ الأمَّة الإسلاميَّة بأحوال عويصة ومحن شديدة، وثورات مدمِّرة، فكيف يتعامل معها، وما هو المخرج من فتنتها؟

أوَّلا: الخروج من الأمور المذكورة هو بلزوم الكتاب والسُّنَّة، فما دلَّ الكتاب والسُّنَّة على انحرافه وضلاله فهو الانحراف والضَّلال مهما كان أهله في الكثرة والعدد، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف]، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: 116]، فالكثرة ليست معيارًا، المقصود أنَّ الإنسان يزن ما يحصل بالكتاب والسُّنَّة بفهم سلف الأمَّة، أصحاب رسول الله ﷺ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم، والتَّابعين وأتباعهم إلى عصر الأئمَّة المهديِّين، كمالك والشَّافعي وأحمد والسُّفيانين والحمَّادين والأوزاعي وشعبة والبخاري ومسلم وأبي داود والتِّرمذي، رحم الله الجميع، المقصود لابدَّ من

(1) انظر ذلك في العدد الحادي والثَّلاثين.

كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ.

فنحـنُ نقيس هذه الأمور بكتاب الله وسنَّـة رسـول الله ﷺ، ومـا كان عليـه السَّلـفُ الصَّالحـون رضـي الله تعـالى عنهم أجمعين.

ثانيًا: نلتفُّ في زمن الفتن حول علماء السُّنَّة والأثر؛ فإنَّ العاصفة إذا هبَّت لابدَّ أن يحتمـي الإنسان فيهـا أو حين هبوبها بالكهـف المنيع الَّـذي يمنعـه بحول الله تعـالى منها، والكهف في هـذا الباب هو حَمَلـة السُّنَّة، والدَّليل علـى ذلك، يقول ابـن مسعود رضي الله عنه: «لقـد وقفنا موقفًا بعد رسـول الله ﷺ كدنـا أن نهلك فيه جميعًـا لـولا أن مَنَّ الله علينـا بأبي بكر وعمـر رضي الله عنهما»، ومـا أدراك مـا عُمَر؟! الَّـذي قال فيـه النَّبـيُّ ﷺ: «إنْ يَكُنْ في أُمَّتي مُحَدَّثُونَ فَعُمَرُ»، ويقول كذلك: «إنَّ اللهَ وَضَعَ الحَـقَّ عَلَى قَلْبِ عُمَرَ وَلِسَانِه»، ويقـول: «وَالَّـذي نَفْسِـي بِيَدِه! مَـا لَقِيَكَ الشَّيْطَـانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّـا إلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَـيْرَ فَجِّكَ»، ومع ذلـك لمَّا جاءت حروب الـرِّدَّة وارتـدَّت القبائل أخـذ يناظر أبا بكـر ـ رضي الله عنه وعنهـم جميعًا ـ في قضيَّـة قتال المرتدِّيـن، وأبو بكر رضي الله عنه يشـرح له في هذا البـاب شرحًا عظيمًا، في مسألـة التَّفرقة بين الصَّلاة والزَّكاة، حتَّى قـال كلمته المشهورة: «فما هو والله إلاَّ أن رأيـت أنَّ الله قد شَـرَح صدر أبي بكـر للقتـال، فعلمتُ أنَّه الحـقُّ»، وقبل ذلك موقفـه رضي الله عنه من وفاة رسول الله ﷺ فقد قام عمـر رضي الله عنه وشهر سيفه قـال: من قال إنَّ محمَّدًا قد مات ضربته بهـذا، حتَّـى جاء أبو بكـر رضي الله عنه كشف عن وجه رسول الله ﷺ فرآه قد فاضت روحـه الشَّريفـة الطَّاهـرة إلى بارئهـا، فقبَّله بين عينيه وقـال: بأبي أنت وأمِّي، طبـت حيًّا وميتًا، فخـرج في النَّاس وهم يموجون، وقال: ألا مَنْ كان يعبدُ محمَّدًا ﷺ فإنَّ محمَّدًا قد مات، ومنْ كان يعبدُ الله فـإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ، وتلا قول الله تبـارك وتعـالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ..﴾ الآيـة [آل عمران: 144]؛ حتَّـى قال عمـر: كأنِّي ما سمعت بهذه الآية إلاَّ الآن، فالتفُّوا حول أبي بكر رضي الله عنه ....

فهـذا موقـف، وموقـفٌ ثالـثٌ لـه، فقصَّة السَّقيفة حينما اضطربُوا وماجوا واختلفوا فيمـا بينهم رضي الله عنهم، كلٌّ واحد من طرفـه يقول ويقـول، فوقف رضي الله عنه ذلك الموقف، قال لهم: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقـول: «إنَّ هَذَا الأَمْرَ في قُرَيْش لاَ يُنَازِعُهُـمْ فيـه أَحَـدٌ إلاَّ كَبَّـهُ اللهُ عَلَى وَجْهِـه في النَّارِ»[2]، فقـال: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فرضوا بذلك ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ وسلَّموا، فالتفُّوا وألَّف الله ـ جلَّ وعلا ـ بينهم بمنِّه ورحمته على أبي بكر، قالـت عائشة رضي الله عنها في هذا: «لقد نـزل بأبي في حروب الـرِّدة ـ تقول ـ ما لو نزل في جبال راسيات لغاضَها».

فالشَّاهـد: أنَّ الالتفـافَ علـى أهل العلـم والسُّنَّة والأثر يمنـع الله تعالى به ويدفع به الشَّرَّ عن الأمَّة.

وهكذا قصَّة أبي بكـر لـمَّا توفي كان قـد عهـد إلى عُمَر فالتفُّـوا حوله، قصَّة عمـر لما تـوفي كان قـد عهـد بالأمر إلى بقيَّة العشرة من أهل الشُّورى، وهم أهل الشُّورى، فاجتمعوا عليهم، فجمعهم الله على كلمة سواء في عثمـان، فالتفُّوا على بقيَّـة العشـرة، وهكـذا بعد قتل عثمان التفُّوا على عليٍّ رضي الله عنه، وهكذا لمَّا حصل مـا حصل بين علـيٍّ ومعاويـة رضي الله عنهـم جميعًا، ولم يكـن الخلاف بينهم أنَّ كلَّ واحـد منهـم لا يقـرُّ بالإمامـة للآخـر، أنَّ معاوية لا يقـرُّ بالإمامة لعليٍّ ولا علـيٌّ ـ رضي الله عنهم جميعًا ـ لا يقرُّ بوجاهة طلب معاوية، لكنَّه يقول لمعاوية: أخِّر حتَّى تستقرَّ الأمور، ومعاوية رضي الله عنه يقول: لابدَّ من الحسـم الآن، وإلاَّ فهو لا ينازعُـه في الولاية والخلافة، وحصل ما حصل بينهـم رضي الله عنهـم جميعًا، ثـمَّ كان مـا كان مـن نبوءة رسـول الله ﷺ حينمـا قـال في الحسـن: «إنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ به بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ عَظِيمَتَـيْنِ مِـنَ المُسْلِمِـينَ»، فنفـع اللهُ ـ سبحانـه وتعالى ـ بتنازل الحسن، والتفَّ النَّاس عليه ورضـوا بتنازلـه واجتمعوا فأعطـى البيعـةَ هاديًـا طائعًـا راضيًـا بالإمامة لمعاوية رضي الله عنهم جميعًا.

فلمَّـا رأت الأمَّـة ذلك مـن الحَسَن وتسليـم النَّـاس معـه لمعاويـة اجتمعـوا علـى معاوية، رضـي الله عنهـم جميعًا



(2) هذا الحديث ذكره معاوية رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، رواه البخاري (3500).

وأرضاهم، وهو رضيٌّ صادقٌ بارٌّ رضي الله عنه، كيف لا وهو خال المؤمنين، وصهر رسول ربِّ العالمين ﷺ، وهو أيضًا أحد الصَّحابة وكَتَبة الوحي، فدفَع الله تعالى بهذا الفتن الَّتي كادت تعصف بالأمَّة.

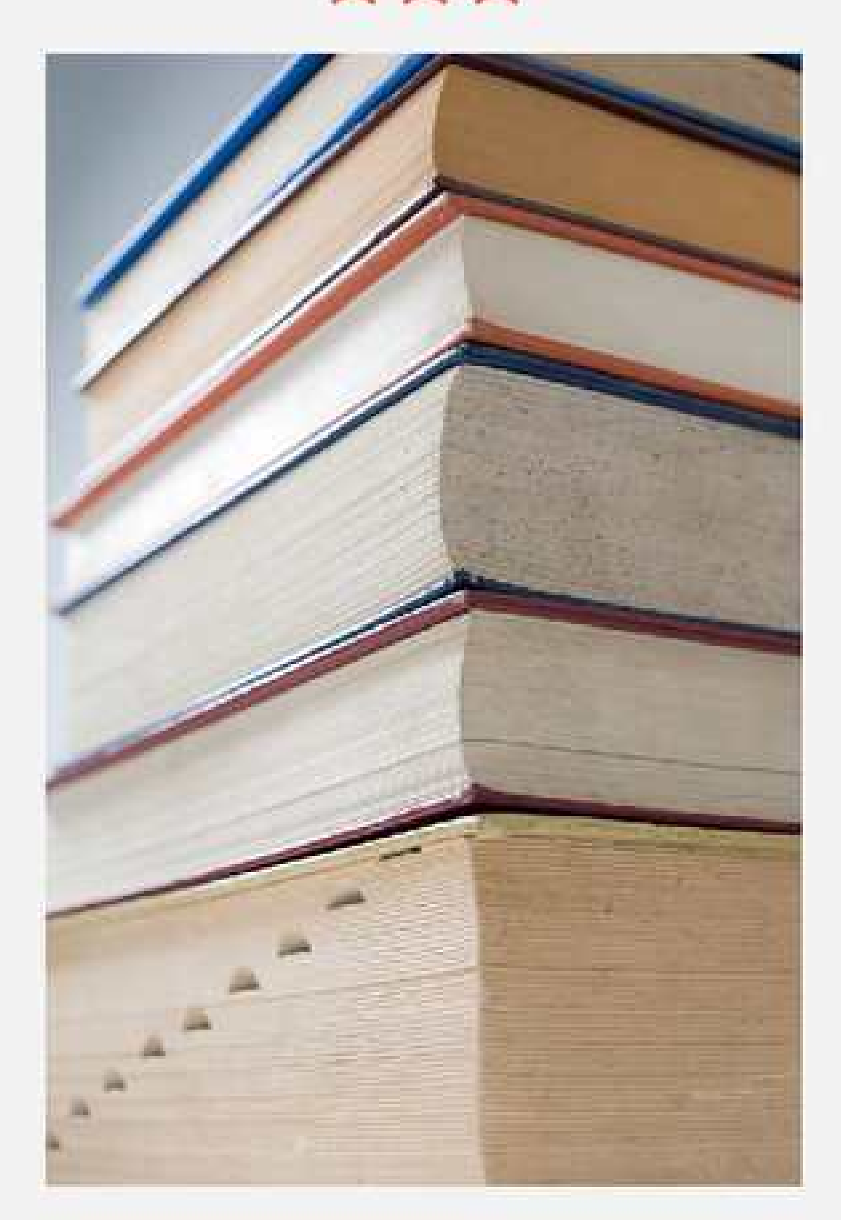
ثمَّ جاءت بعد ذلك قضيَّة خلق القرآن فالتفَّ النَّاس على أحمد ابن حنبل رحمه الله ومن معه من أئمَّة الأثر والحديث، فعصمهم الله تعالى من التَّفرُّق وخالفهم أهلُ الأهواء ولم يكن لخلافهم قيمة تُذكر، فكان أهل السُّنَّة في جانب مجتمعين، فنجَّاهم الله ـ جلَّ وعلا ـ في هذا الباب من الفتن العظيمة الَّتي عصفت بالأمَّة.

وهكذا في كلِّ الأمصار وفي جميع الأعصار؛ المخرج من هذه الفتن هو التَّمسُّك بكتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، والالتفاف حول من يقوم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، فإذا حدثت الفتن فإنَّها في أوَّل أمرها لا يعرفها إلاَّ العلماء، وإذا أدبرت عرفها العامَّة، فالعلماء هم الَّذين يعرفون الفتنَ في إقبالها ويحذِّرون النَّاسَ منها وينصحونَهم ويبيِّنون لهم كيفَ المخرج منها، حتَّى يسلكوا بهم سبيل النَّجاة.

فهذه الأحداث القائمة الآن سبيلنا فيها سبيل مَن تقدَّمنا في مثل هذه الفتن الَّتي مرَّت بأمَّة محمَّد ﷺ المذكورة، أن نلتفَّ على علماء الشَّريعة، على علماء أهل الحديث والأثر، أهل السُّنَّة والجماعة، المعروفين بالعلم والصِّدق في الدِّين والنَّصيحة للمسلمين، والمعروفين أيضًا بالدَّعوة إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، ولا نزْهَد فيهم ولا نسمَع لمن يزَهِّد فيهم، وعلينا أن نلتفَّ حولهم، فإذا التففنا حولهم؛ نجونا بإذن الله تبارك وتعالى؛ لأنَّ هؤلاء العلماء هم ورثة الأنبياء، والنَّبيُّ ﷺ أمان لأمَّته، فلمَّا ذهب جاء أمَّتَه ما تُوعَد، وأصحابه أمنة لأمَّته، فلمَّا ذهب أصحابه أتى أمَّتَه ما تُوعَد، والعلماء هم ورثة الأنبياء، وإنَّما ورَّث الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هذا العلم، فالقائمون مقامهم هم أهل العلم، يقومون ويُمسِّكون النَّاس بالكتاب، ويدعونهم إلى كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، كما قال الإمام أحمد في خطبته الشَّهيرة، في مقدِّمة كتابه «الرَّدِّ على الجهميَّة»: «يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى...، فما أحسن أثرهم على النَّاس وما أقبح أثر النَّاس عليهم».

نسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يوفِّقنا جميعًا للالتفاف بعلماء السُّنَّة والأثر المعروفين بالسُّنَّة والتَّمسُّك بها والدَّعوة إليها، كما نسأله ـ جلَّ وعلا ـ أن يعصمنا وسائر إخواننا المسلمين من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

⌑ ⌑ ⌑



السُّؤال الأخير. شيخنا بارك الله فيكم: هناك من يتَّهم علماءنا ومشايخنا بالغلوِّ، فبماذا نردُّ عليه؟

نقول لهم: «البيِّنة على المدَّعي»، فالنَّبيُّ ﷺ قد أخبر في هذا الحديث بهذا الأصل العظيم، ما هو الأصل الَّذي رأيتمونا غلونا فيه أو مشايخنا غلَوْا فيه؟ بيِّنوه، الدَّعاوى سهلة؛ كلُّ واحد يدَّعي، لكن الإثبات! من أقام البيِّنة سُمع له ومن لم يقم البيِّنة فهو دَعيٌّ، مُدَّع دَعيٌّ، وكاذب ولا يقبل كلامه، فنقول: سمُّوا لنا هذا الغلوَّ الَّذي وجدتموه، وبعد ذلك نتحدَّث، وإنَّهم ليسوا واجديه، وإذا ما تكلَّموا نحن نعرف ما عند هؤلاء؛ لن يتكلَّموا إلاَّ بشيء واحد: طعنتم في فلان وجرَّحتم فلانًا، وما سلم منكم أحدٌ؟!

قلنا: أمَّا قولكم: ما سلمَ منكُم أحدٌ، فهذه كذب؛ لأنَّها عموم بعد تخصيص، وقد خصَّصتم فلانًا وفلانًا، وفلان وفلان إنَّما رُدَّ عليهم من أشرطتهم المسموعة ومن كتاباتهم المطبوعة، وأمَّا قولكم: ما سلم منكم أحد، فهات إذا كان عندكم سمُّوهم كما سمَّيتم هؤلاء، فالسُّكوت على الباطل لا يجوز، والرَّدُّ على المبطل هذا هو دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإذا رأيتم أنَّ الرَّدَّ على المبطلين غلوٌّ فما هو التَّرك، التَّرك إضاعة لدين الله، وذلك بغشِّ الأمَّة إذ سكتم عن هؤلاء المبطلين، فأصبحوا يتَّبعونهم، وهؤلاء قد ضلُّوا ويضلُّون بعد ضلالهم كثيرًا عن سواء السَّبيل، فنحن نسأل الله العافية والسَّلامة، وبعضهم يقول هذه المقالة ويزعم أنَّه يحارب الغلوَّ، ولمَّا نظرنا في كلامه وأردنا أن نطبِّق عليه مقالته وجدناه هو الغالي، فإذا كان بعضُ هؤلاء الَّذين يصفون علماءَ السُّنَّة وأهلَ السُّنَّة

مسائل منهجية

بالغلوِّ يذكر في بعض كُتُبه أنَّ السَّلفيَّ ليس هو مَن حقَّق عقيدةَ أهل السُّنَّة في توحيد الألوهيَّة وتوحيد الأسماء والصِّفات ما لم يحقِّق الأخلاقَ والآدابَ والسُّلوك، إيش معنَى هذا الكلام؟!

إذا حقَّق التَّوحيد بقسميه، أو بأقسامه: ربوبيَّة وألوهيَّة وأسماء وصفات، هذا ليس بسلفي؟! سلفيٌّ، طيِّب وقع لديه قصور في الأخلاق والسُّلوك، شرب مثلاً خمرًا، وأصوله أصول السُّنَّة، ماذا نحكمُ عليه نحن؟ نقول: سنِّيٌّ فاسق، أمَّا هو فلا يقول سنِّيٌّ حتَّى يحقِّق هذه الأخلاق، فمَن هو الغالي ـ بالله ـ نحن أم هو؟ هو الغالي، هذا أشْبَه الخوارج من وجه: أنَّه إذا لم يخلُ من ارتكاب الكبائر ما هو مسلم، أبدًا، هذا كلام الخوارج، إذا ارتكب كبيرة فليس بمسلم، وهذا إذا لم يحقِّق السُّلوك والأخلاق فليس بسلفيٍّ، فأيُّنا أولى بأن يوصَف بالغلوِّ؟ نحن الَّذين نقول: سنِّيٌّ فاسق:

والفاسق المِلِّيُّ ذو العصيان
لم يُنف عنه مطلق الإسلام
بل أمرُه تحت مشيئة الإله النَّافذه
إن شا عفا عنه وإن شا أخذه

فهذا الفاسق المِلِّي، النَّبيُّ ﷺ قال في الَّذي جيء به وقد شرب الخمر: «لاَ تَكُونُوا عَوْنًا للشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ»، وشهد له أنَّه يحبُّ الله ورسوله، وقال للصَّحابي: «لا تَسُبَّه»، وقال في المرأة: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى»، فهذا قول النَّبيِّ ﷺ فيمن ارتكب معصية، لكن قوله في أهل البدع، قال في الخوارج: «شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ»، «شَرُّ خَلْقٍ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»، «كِلاَبُ النَّارِ»، «لَئِنْ لَقِيتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»، «طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ أَوْ قَتَلُوهُ»، «إِنَّ لِمَنْ قَتَلَهُمْ لأَجْرًا»، إلى غير ذلك من الألفاظ، ووصفهم بأنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم «يَحْقِرُونَ صَلاَتَهُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ وَقِرَاءَتَهُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ»، وفي لفظ: «لَيْسَتْ صَلاَتُكُمْ إِلَى صَلاَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَيْسَتْ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ»، لكن قال فيهم: «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لاَ يَتَجَاوَزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»، فما قيمةُ هذه الأخلاق والعبادة والعقيدة فاسدة؟ ما قيمتُها إذا فسدَت العقيدة؟ هذا جانب.

أمَّا الجانب المهمُّ الَّذي يَردُ على بعض هؤلاء الاشتراط الَّذي ذكرناه: ما يكون سلفيًّا إلاَّ إذا حقَّق التَّوحيد بأقسامه، وبعد ذلك حقَّق السُّلوك والأخلاق والآداب، فهذا هو في الحقيقة وأمثاله هُم الغلاة.

وفي الجانب الآخر صنفٌ آخر منهم مع الإخوان، ومع التَّبليغ، ومع السُّروريِّين، ومع جميع من ذُكروا من أهل الأهواء المتحزِّبين في هذا العصر، لا يستحيون من الكذب، ولا يستحيون من مصاحبة منحرف متحزِّب ثمَّ يحلفون زورًا وكذبًا أنَّهم على السُّنَّة، وهُم يحاربون أهل السُّنَّة بمقالاتهم وكتاباتهم، فالدَّعاوى سهلة، كلٌّ واحد يدَّعيها، لكن البيِّنة على المدَّعي، فإذا جاءت البيِّنات انكشف حينئذ وانجلى الغبار ورأينا، هل الَّذي تحتهم فرس أم حمار!

فنسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُحقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل وأن يعليَ الحقَّ وأهلَه، وأن يُعلي منارَه، وأن ينصر أنصارَه، إنَّه جواد كريم، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد.

¤ ¤ ¤

في الختام ـ شيخنا بارك الله فيكم ـ: نريد منكم كلمةَ توجيهيَّة للشَّباب في الجزائر وغيرها تشجِّعهم على المواصلة في طلب العلم والدَّعوة إلى الحقِّ والتَّمسُّك بالدَّعوة السَّلفيَّة، وتكون لهم سلاحًا في مواجهة الشُّبهات والشَّهوات.

الَّذي تقدَّم كلُّه وصيَّة في هذا الباب، فنحن نختصر مرَّة أخرى ونقول:

إنَّ الوصيَّة في هذا هو وصيَّة رسول الله ﷺ، فقد وصَّانا كما في حديث عرباض بن سارية رضي الله عنه وأرضاه: «إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ».

فوصَّانا ﷺ بعدما أخبرنا بوقوع هذا الاختلاف الكثير الَّذي ذكره نكرة في سياق الإخبار، فأفادَنا العُموم والكثرة كما قاله عليه الصَّلاة والسَّلام، فعلينَا عندئذ أن نصبر وأن نحتسب وأن نعلم أنَّ طريقَ التَّعلُّم والعلمَ صعب، ويحتاج إلى صَبر، قال سبحانه وتعالى في هذا مبيِّنًا السُّنَّة الإلهيَّة في هذا الجانب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، فهذا الكتاب العظيم كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ ينزله على رسوله ﷺ على الوقائع منجَّمًا تثبيتًا لرسول الله ﷺ كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان]؛ فالواجب على طالب العلم أن يصبر وقد ضرب النَّبيُّ ﷺ مثلاً في هذا، في قصَّة

مسائل منهجية

موسى - عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام - مع الخضر - عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصَّلاة والسَّلام -، قال: «يَرْحَمُ اللهُ أَخِي مُوسَى لَيْتَهُ صَبَرَ»، فالعلم يحتاج إلى صبر، وقد قال الخضر لموسى عدَّة مرَّات: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الكهف].

فهذا العلم يحتاج إلى الصَّبر، من أراد العلمَ جملةً ذهب عنه جملةً، ومَن صَبَر وصَل، فأوصيهم بالصَّبر والاعتناء بالتَّعلُّم وأن يدعُوا التَّصدُّر، فسيُبْتَلون به في حين من الأحيان، ويتمنَّون لو أنَّهم يجدون فراغًا كما هو حال العلماء والمشائخ الآن، يتمنَّى الشَّيخ لو يجد فراغًا من الطُّلَّاب، ولا يجد، فهذا القوسُ سيأتيهم بلا ثمَن، يُقال في المثل: «إنَّ شابًّا رأى شيخًا قد احدودَب، فقال: بكَمْ اشترَيتَ القَوسَ يا أبتِ؟ قال: يأتيك القوسُ يا بنيَّ بلا ثمن!»

فسيأتيهم هذا، وسيُبتلون في مثل هذا الباب، فعليهم الآن إعدادَ العدَّة وأن لا ينقطعوا عن التَّحصيل، وألاَّ يشتغلوا بما قَد كُفُوا فيه، والَّذي كُفُوا فيه هو جانب الفتوى وجانب الكلام في النَّوازل، وجانب الأحكام، هذه لأهل العلم، فعليهم هم أن يتفرَّغوا للطَّلب وأن ينقلوا العلمَ عن هؤلاء الأشياخ، وليس معنى هذا أنَّهم لا يعتنون بأنفسهم، ولا يَحذرون أو يُحذِّرون ممَّن يرون عليه بدعة أو خطأ إذا رأوا أن يُغترَّ به، فهذا من أكبر الأغلاط، يظنُّ بعضُ النَّاس أنَّ طالبَ العلم يُقاد على وجهه كالبهيمة، هذا غلط، وقد ذكر النَّووي رحمه الله في «رياض الصَّالحين» الأسباب المبيحة للغيبة، فقال: «ومنها: إذا رأى مُتَفَقِّهًا يتردَّدُ إلى مُبْتَدِعٍ، أو فاسق يأخذ عنه العلمَ، وخاف أن يتضرَّرَ المُتَفَقِّهُ بذلك، فعليه نصيحتُه ببيانِ حاله».

فالشَّاهد: طالب العلم في سَيْرِه إلى الله - تبارك وتعالى - وفي تحصيله لابدَّ وأن تَعرِض له عقَبات، فإن حُذِّر وحَذَّر ليس معنى ذلك أنَّه نصَّب نفسَه - كما يقال اليوم - للتَّجريح أو للاشتغال بالتَّجريح والتَّعديل، وإنَّما أقام نفسَه مقامَ النَّاصح؛ لأنَّ النَّاصح إذا علم الشَّرَّ وجَب عليه أن ينصَح من خاف عليه أن يقَع فيه، فهذَا حقُّ المسلم على المسلم، وتتوجَّب النَّصيحةُ إذا رآه وطلبَها منه، فحينئذ لابدَّ أن يكون ناصحًا له بالبيان؛ لأنَّه إذا انخدع بهذا المدرِّس وبهذا العالم وهو مبتَدع، فإنَّك لا تجني من الشَّوك العنبَ، فتكون النَّتيجة أن يكون الطَّالب مبتدعًا.

فأنا الَّذي أُوصي به إخوتي وأبنائي أن يعتَنوا بالعلم، وأن يُفرِّغوا أنفسَهم له، وأن يصبرُوا في طلبه وتحصيله على المشاقِّ، وسيأتيهم الوقتُ الَّذي يبتَلون فيه ويتمنَّون الفراغَ، ونسألُ اللهَ تبارك وتعالى التَّوفيقَ للجميع.

⌑ ⌑ ⌑

شيخنا - بارك الله فيكم وجزاكم الله خيرًا في الدُّنيا والآخرة وأعظم لكم المثوبة - على هذه النَّصائح السَّديدة، والآراء الرَّشيدة.

وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّه محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

⌑ ⌑ ⌑

الأُمَّة

بين الهزيمة والنصر
غزوة حنين نموذجا

ياسين شوشار
إمام خطيب. الجزائر

إنَّ هذه السِّيرة على صاحبها أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم كانت ولا تزال تنير الدَّرب للسَّائرين، وتوضِّح معالمه للتَّائهين في دنيا الأفكار المنحرفة والتَّطبيقات الخاطئة، الَّتي زادت الأمَّة فرقة واختلافًا، وفي هذا المقال نبرز جانبًا من غزواته، وهي غزوة حُنين، لنستلهم منها أسباب النَّصر المنشودة، ولنحذر أسباب الهزيمة والخذلان.

سُمِّيت هذه الغَزوة بـ«حُنَين»؛ لاسم وادٍ كانَ بينَ مكَّة والطَّائف، وتُسمَّى كذلك «غزوة هَوزان»؛ لاسم القبيلة الَّتي قادت القتال ضدَّ رسولِ الله ﷺ.

وقعت هذه الغَزوة في أوائل شهر شوَّال عام ثمانية من الهجرة النَّبويَّة.

وسببها أنَّ بعضَ قبائل العرب. وهي: هوزان وثقيف وغيرها، وكانت قبائل شرسة قويَّة متَغطرسَة. عاظها ما آل إليه أمر العَرب من الإذعان للنَّبيِّ ﷺ، فرأت من نفسها عزًّا وأنفة أن تقابل انتصار المسلمين في مكَّة بالخضوع، فاجتمَعت على مالك بن عوف سيد هوزان، الَّذي قرَّر المسير بهم إلى حرب المسلمين في جيش قوامه عشرون ألف مقاتل، وكان من رأيه أن يأخذ معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، الرَّأي الَّذي سفَّهه دُريد بن الصمَّة. وكان شيخًا ليس فيه إلَّا رأيه ومعرفته بالحَرب. حيث قال له: «راعي ضأن والله! وهل يَردُّ المنهزمَ شيء؟ إنَّها إن كانت لك لم ينفعك إلَّا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحتَ في أهلك ومالك»، فسفَّهَ مالك رأيَه وأصرَّ على خطَّته، لحكمة منَ الله الحكيم الخبير.

وبلغت الأخبار النَّبيَّ ﷺ، فأرسل عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي لاستطلاع خبر هذا الجيش، فرجع بخبر القوم، فخرج النَّبيُّ ﷺ ومعه اثنا عشر ألف مقاتل، يقول أنس رضي الله عنه: «لمَّا كان يوم حُنين أقبَلت هَوزان وغَطفان وغيرُهم بنَعَمهم وذراريهم ومع النَّبيِّ ﷺ عشرة آلاف، ومن الطُّلقاء ...»[1]؛ أي. الَّذين أطلقهم النَّبي ﷺ بعد فتح مكَّة وهم ألفان، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام.، واستَعار من صفوان بن أميَّة مائة درع بأداتها واستَعمل على مكَّة عتَّاب بن أَسيد[2].

خرج رسول الله ﷺ بجيش المسلمين من مكَّة، وفي الطَّريق عيون تأتي بالأخبار إلى رسول الله ﷺ، فجاءه منهم رجل فقال: طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظُعُنهم ونَعَمهم وشائهم اجتمعوا إلى حُنين، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ وقال: «تلْكَ غَنيمَةُ المُسْلمينَ غَدًا إنْ شَاءَ اللّه»[3].

(1) رواه البخاري (4337)، واللَّفظ له، ومسلم (1059).
(2) «تخريج أحاديث فقه السيرة» للألباني (ص433).
(3) «سنن أبي داود» (2501)، «صحيح أبي داود» (2183).

وفي طريقهم إلى حنين رأوا سدرةً عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنواط كانت العرب تعلّق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «اللهُ أكبرَ قُلْتُمْ والَّذي نَفْسُ محمَّد بِيَدِه كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَة، قَالَ: إنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ، إنَّهَا السُّنَن، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[4].

وقال بعض المسلمين لمَّا نظر إلى كثرة الجيش: لن نغلب اليوم من قلَّة! فعاتبهم الله تعالى فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التوبة: 26].

وانتهى الجيش النَّبويُّ إلى حُنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوَّال، وعبأ رسول الله ﷺ جيشه بالسَّحَر وعقد الألويَّة، بينما استحوذ جيش الكفَّار بقيادة مالك بن عوف الوادي ليلاً وفرَّق كُمناءَه في الطُّرق والمداخل والشِّعاب والمضايق وأمرهم أن يَرشقوا المسلمين أوَّل ما يطلعوا، ثمَّ يشدُّوا شدَّة رجل واحد، وفي عماية الصُّبح استقبل المسلمون وادي حنين وشرعوا ينحدرون فيه - وهم لا يدرون بوجود كُمناء العدو في مضايق الوادي - فبينما هُم ينحطُّون إذا بالنّبال تمطرهم وإذا كتائب العدوّ قد شدَّت عليهم شدَّة رجل واحد، فقفل المسلمون راجعين لا يلوي أحدٌ على أحد وركبت الخيل بعضها بعضًا وكانت هزيمة منكرة.

وانحاز رسول الله جهة اليمين وهو يقول: «هَلُمُّوا إليَّ أيُّهَا النَّاسُ أنَا رَسُولُ اللهِ، أنَا مُحَمَّد بنُ عبدِ الله»، ولم يبق معه في موقفه إلَّا عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته، وظهرت شجاعته عليه السلام فطفق يركز بغلته قِبَل العدوُّ وهو يقول:

أنا النَّبيُّ لا كذب
أنا ابنُ عبد المطَّلب

وكان أبو سفيان بن الحارث آخذًا بلجام بغلته، والعبَّاس بركابه يكفَّانها أن لا تسرع، ثمَّ أمر ﷺ عمَّه العبَّاس - وكان جَهير الصَّوت - أن ينادي الصَّحابة فقال بأعلى صوته: أينَ أصحاب السَّمُرة؛ قال العبَّاس: فوالله لكأنَّ عَطفتَهم حين سمعوا صوتي عَطفةُ البقر على أولادها، فقالوا: لبَّيك؛ لبَّيك؛ ويذهب الرَّجل يثني بعيره فلا يَقدر عليه، فيأخذ درعَه فيقذفها في عُنقه، ويأخذ سيفَه وتُرسه، ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤمُّ الصَّوت، حتَّى إذا اجتمع إليه مائةٌ منهم استقبلوا النَّاس واقتتلوا، ثمَّ نادى الأنصار: يا معشَر الأنصار! يا معشر الأنصار! فتلاحقت كتائبُ المسلمين واحدةٌ تلو الأخرى، كمَا كانوا تركوا الموقعة، وتجَالد الفريقَان مجالدةً شديدةً، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال وقد استحَرَّ واحتَدم، فقال: «الآنَ حَميَ الوَطيسُ»، وتوجَّه النَّبيُّ ﷺ يدعو ربَّه: «اللَّهُمَّ نَزِّل نَصْرَكَ»، ثمَّ أخذ قبضةً من تراب الأرض، فرمَى بها في وجوه القوم، ثمَّ قال: «انْهَزمُوا وَرَبِّ مُحَمَّد»، وقال: «شَاهَت الوجُوهُ»، فما خلق اللَّه إنسانًا إلَّا ملأ عينيه ترابًا من تلك القَبضة فولُّوا مُدبرين فهزَمَهُم الله عزَّ وجلَّ...»[5].

وفي هذه الغزوة ثبَّت الله أولياءَه، وأنزل ملائكته لتقاتل معهم، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦﴾ [سورة التوبة].

وما هي إلاَّ ساعات قلائل حتَّى انهزم العدوُّ هزيمة منكرة، وقتل من ثقيف وحدهم نحو السَّبعين، وقام المسلمون بمطاردة فلول جيش العدو، الَّذين تحصَّن معظمهم في حصن الطَّائف.

وكان السَّبي ستَّة آلاف من النِّساء والأولاد، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضَّة.

أمر - عليه الصَّلاة والسَّلام - أن تجمع الغنائم بالجِعْرَانة، ثمَّ توجَّه والمسلمون إلى حصن الطَّائف الَّذي تحصَّن به عوف بن مالك ومَن معه فحاصروه، ولمَّا طال الحصَار ولم ينزلوا؛ رجع رسولُ الله ﷺ إلى الجِعْرَانة، وكان من كرمه ﷺ ورأفته أنَّه أخَّر تقسيم الغنائم يَبتغي أن يَقدمَ عليه وفدُ هوازن تائبين، فيحرزوا ما فقدوا، ولكن لم يجئه أحد، فبدأ النَّبيُّ ﷺ بعد ذلك بتوزيع الغنائم، وكان للمؤلَّفة قلوبهم النَّصيب الأوفر، فأعطى أبا سفيان أربعين أوقية ومائة من الإبل، وأعطى ابنيه معاوية ويزيد ورؤوس قريش مثل ذلك، وأعطى حكيم بن حزام ضعف ذلك، حتَّى شاع بين النَّاس أنَّ محمَّدًا يُعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفَقر، فازدحمَت عليه الأعرابُ يطلبون المال؛ فعَن جبير بن مُطعم أنَّه بينا هو مع رسول الله ﷺ ومعَه النَّاس مقبلاً من حُنين عَلقت رسول الله ﷺ

(4) انظر: «سنن التِّرمذي» (2180).

(5) انظر: «زاد المعاد» (471/3)، وكثير من ألفاظه في «صحيح مسلم» (1775) من حديث سلمة ابن الأكوع رضي الله عنه.

الأعراب يسألونه حتَّى اضطرُّوه إلى سَمُرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ فقال: «أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ العِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلًا، وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا»[6].

وأعطى صفوان بنَ أميَّة ـ وكان لا يزال مشركًا ـ عطاءً كثيرًا، قال صفوان: «والله لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني، وإنَّه لأبغضُ النَّاس إليَّ، فما برح يُعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ»[7].

وكان يوزِّع الغنائم حسب ما تقتضيه المصلحةُ العامَّة، ويضعُها في موضعها اللَّائق بها؛ فعن عَمْرِو بن تَغْلِب أنَّ رسول الله ﷺ أُتيَ بمَالٍ أو سبيٍ فقسمه، فأعْطَى رِجَالًا وترك رجالًا فبلغه أنَّ الَّذين تركَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللهَ ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْه، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ، وأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ وَالهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى وَالخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو ابْنُ تَغْلِبَ»؛ فَوَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ[8].

ومع ذلك انتقد بعض المنافقين رسولَ الله ﷺ في صنيعه هذا ونسبه إلى الجَور والظُّلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالجِعْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اعْدِلْ؛ قَالَ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟ لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»؛ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَأَقْتُلَ هَذَا المُنَافِقَ؛ فَقَالَ: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[9].

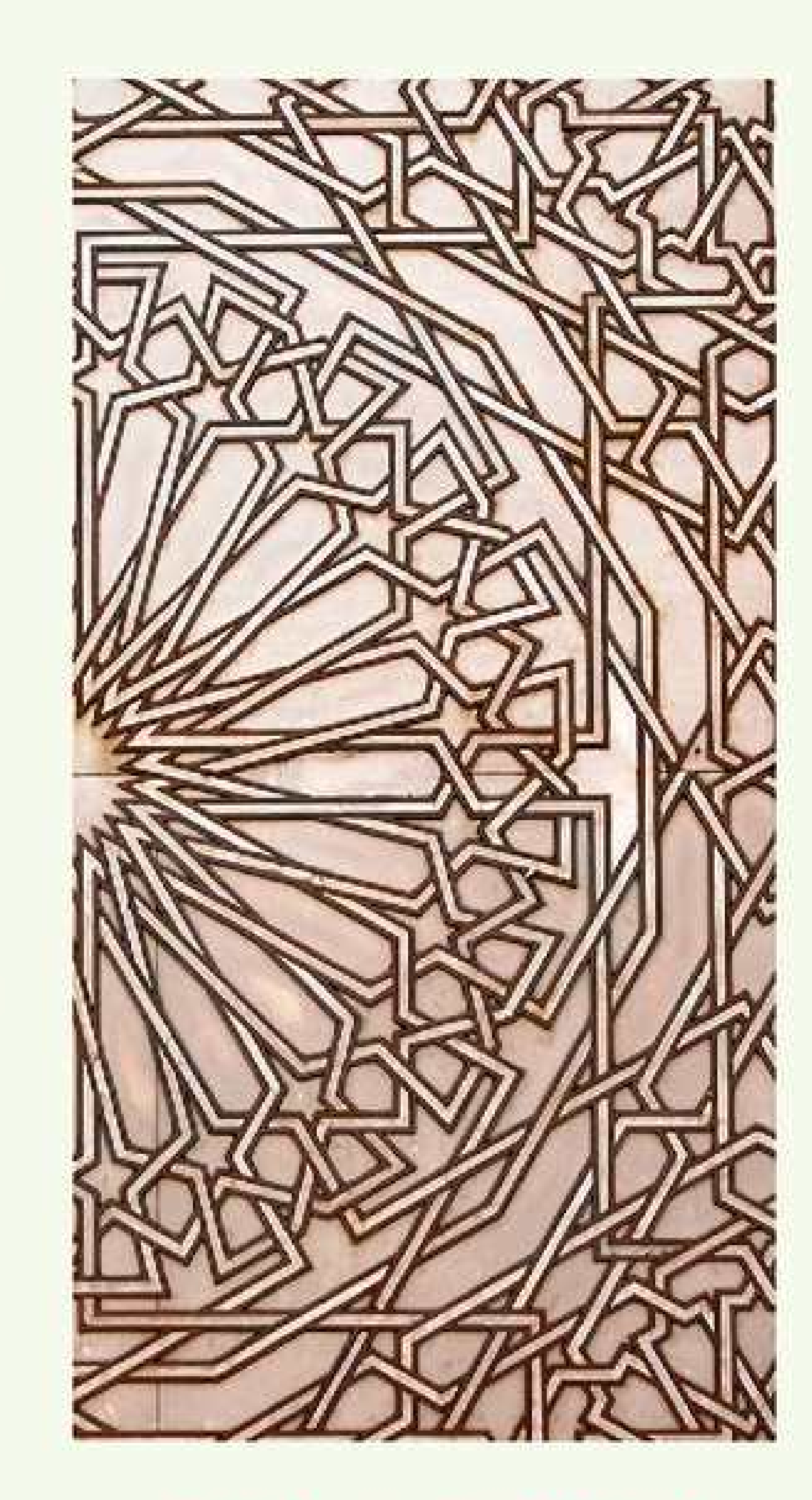
ولم يُعطِ الأنصار شيئًا من الغنائم، فتكلَّم أقوام منهم، يقول أَنَسُ بنُ مَالك رضي الله عنه: «لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ... فَأَصَابَ يَوْمَئِذٍ غَنَائِمَ كَثِيرَةً، فَقَسَمَ فِي المُهَاجِرِينَ وَالطُّلَقَاءِ وَلَمْ يُعْطِ الأَنْصَارَ شَيْئًا، فَقَالَتِ الأَنْصَارُ: إِذَا كَانَتْ شَدِيدَةٌ فَنَحْنُ نُدْعَى، وَيُعْطَى الغَنِيمَةَ غَيْرُنَا؛ فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! مَا حَدِيثٌ بلغني عَنْكُمْ...»[10]

وفي حديث: «فدخل عليه سَعْدُ ابن عُبَادة فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الحيَّ مِنَ الأنصار قد وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ العَرَبِ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، وَمَا أَنَا؟ قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ الأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟، قَالُوا: بَلِ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؟! قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللهِ! وَللهِ وَلِرَسُولِهِ المَنُّ وَالفَضْلُ. قَالَ: أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَآسَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ فِي رِحَالِكُمْ؟! فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى القَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ قَسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقُوا»[11].

ولمَّا فَرَغ من قَسْم الغَنائم، أحرمَ بعُمرة ودخَل مكَّة، فطاف وسعى وحلق ورجَع إلى الجِعْرانة من ليلته، ثمَّ رجَع إلى المدينة، لست بقين من ذي القَعدة، قاله ابن هشام، وقيل: لثلاث بقين، وعند ابن إسحاق: فقدم المدينةَ في بقيَّة ذي القعدة، أو في أوَّل ذي الحجَّة.

□□□

(6) رواه البخاري (2821، 3148).
(7) رواه مسلم (2313).
(8) رواه البخاري (923).
(9) رواه مسلم (1063).
(10) رواه البخاري (4337)، ومسلم (1950).
(11) «مسند أحمد» (11730).



إن هذه الغزوة حوت دررا كثيرة، وفوائد غزيرة لمن تأملها، حسبنا في هذا المقام بيان ما تعلق منها بأسباب النصر والهزيمة، علنا أن نعتبر من هذه الهزائم المتوالية والمخازي المتكررة، في وقت الأمة فيه أحوج ما تكون إلى رجوع صادق إلى الله وإلى سنة نبيه الأمين ﷺ.

□ إنَّ مَن تأمَّل في قصَّة ذات أنواط، أدرك أنه لا بد من تطهير الصف ممَّا قد يكون سببًا للخسارة العاجلة والآجلة، ذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يترك هذه المقالة دون تنبيه وإرشاد. حيث إنَّ القوم حديثو عهد بكفر. بل نبَّه وشدَّد؛ لأنَّ هذا الأمر لا يقبل المساومة والسكوت عنه، فقال: «الله أكبرُ! قلتُم والذي نفسُ محمَّد بيده كما قال قومُ موسى: اجْعَل لنَا إلهًا كما لهم آلهة».

ومن هنا يُعلم خطأُ أولئك الَّذين يَعرِضُون صفحًا عن تصحيح العقائد ومحاربة الشركيَّات؛ خوفًا من نُفور المدعوِّ ومُجابهته، ويقولون: المهم أنَّه مسلمٌ في الظَّاهر بغضِّ النَّظر عن معتقده أو منهجه، بل وتَراهم يقفون معهم فلا ينكرون ولا يزجرون، كلُّ هذا من باب مصلَحة الدَّعوة. تأليفًا للقلوب وتقريبًا للحقِّ زعموا.، فبيَّن النَّبيُّ ﷺ أنَّه لا بدَّ من تصفية الصُّفوف وتنقيتها، وتثبيت العَقيدة الصَّحيحة في قلوب النَّاس، ثمَّ بعد ذلكَ يكونُ القتال ومن ثَمَّ يكونُ النَّصر الَّذي هُو من عند الله.

فإذا تأمَّلت جيِّدًا هذا، أدركتَ سببَ هذه الهزائم المتكرِّرة، وهو أنَّ الكثير أغفل أو تغافلَ عن هذا التَّعليم النَّبوي، فلم يركز في تربية الأمَّة وتعليمها. قبل حصول المدلهمَّات وتكاثر الشُّرور. على العَقيدة الصَّحيحة، والظِّل لا يستقيم ما دام العود أعوج.

□□□

□ وممَّا يوجب الهزائم المتتالية: التَّشبُّه بالكافرين، ولهذا قال عقبَ التَّحذير من الشِّرك ووسائله: «لتَركَبُنَّ سَنَنَ مَن كان قبلَكم...»، وتأمَّل قولَه: «قُلتُم والَّذي نفس محمَّد بيده كمَا قالَ قومُ موسَى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون» تجد صدقَ هذا الاستنتاج.

□□□

□ تقرير مبدأ الأخذ بالأسباب: وهُو مأخوذ من فعل النَّبيِّ ﷺ في غزواته، فكان يستعدُّ للقاء العدوِّ بالعُدَّة المادِّيَّة والإيمانيَّة.

والعُدَّة المادِّيَّة، ظهرت في هذه الغَزوة في ثلاثة أشياء:

أ. القيادة القويَّة: فلا خير في قائد شجاع مقدام لا قيمة لخُططه وآرائه، كمالك بن عوف الَّذي لم يأخذ برأي البَصير بشؤون الحَرب وخباياها، والَّذي زجَّ بقومه في أتون حرب خاسرة، ولا خير في رجل جبان لا يستطيع تثبيت الأمة في المواقف الحالكات.

والخير كلَّ الخَير في قيادة متَّزنة وقويَّة، تجمَع بين رجاحَة رأي وشجاعة في الميدان، يقول ابنُ باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحتَ عنوان «مظاهر قوَّته»: «كانَت قوَّتُه لتحمُّل أعباء الرِّسالة وتبليغها للخَلق، قوَّة أدبيَّة وقوَّة حربيَّة؛ فمن الأولى ثباتُه في مواقف التَّبليغ، . كقَوله لعمِّه أبي طالب. وقَد فهم منه أنَّه ضَعُف عن نصره وأنَّه مسلِّمُه .: «يا عمُّ! والله لو وضَعُوا الشَّمسَ في يميني والقَمر في يساري على أن أترُكَ هَذا الأمر حتَّى يُظْهِرَه الله أو أهلَكَ فيه مَا تَركتُه»[12]؛ ومنَ الثَّانية ثباته في ميادين القتال ومواقف البأس كمَا ولَّى عنه النَّاس يوم حنين. وهُو يقول راكبًا على البَغلة الَّتي لا يركبُها إلاَّ مَن لا يفرُّ.: «أنَا النَّبيُّ لاَ كَذبْ ... أنَا ابْنُ عَبْد المُطَّلبْ» معلنًا مكانَه مظهرًا نفسَه أمامَ الأعداء الآتين من كُلِّ صوب»[13].

ب. العناية بعدد وعدَّة الجيش: أمَّا عدد الجيش فقد تكوَّن من عشرة آلاف ممَّن قَدم معه لفَتح مكَّة من المهاجرين والأنصَار وهُم مَن هُم في صلابة التَّديُّن وكمَال الاتِّباع، ومعَهم ألفان من مُسلمَة الفَتح.

(12) هذا إسناد معضل؛ لأنَّ يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس من أتباع التَّابعين، وهو لم يُدرك أحدًا من الصَّحابة. والله أعلم.. ولعلَّ عُذر الشَّيخ في الاستدلال به أنَّه مذكور في كثير من كتب السِّيرة.

(13) «الآثار» (512/3).

وأمَّا عن العدَّة: فلم يُغفلها ﷺ، بَل خرجَ بالعدَّة الَّتي أقبل بها من المدينة، وزيادة على ما ذكر «استعار من صَفوان بن أميَّة مائة درع بأداتها»، وهو يدلُّ على حسن تَدبيره، وجديته في هذه القَضايا المصيريَّة.

جـ. العنايَة بتَقسيم الجَيش وإحكَام تنظيمه: عبَّأ النَّبيُّ ﷺ جيشَه، وعقَد الألويَة والرَّايات وفرَّقها على النَّاس، وأرسل العُيون في دوريات استطلاع للحُصول على المعلومات اللاَّزمة، فمِن ذلك إرساله أبا حدرد ورجالا للتعرف على أخبار المشركين، وفي هذا دليل آخر على أهميَّة الأخذ بالأسباب.

والهزائم المتواصلة الَّتي تلحق الأمَّة في كلِّ زمان ومكان بعضُها من إغفال مثل هذا الأمر.

□□□

□ عدم الاغترار بالكثرة من أسباب النَّصر: وذلك أنَّ بعضَ المسلمين ممَّن كان مع النَّبيِّ ﷺ قال يومَها: «لن نُهزم اليومَ مِن قلَّة»، اعتمادًا على الكَثرة واغترارًا بالقوَّة الموجودة، فاستحقُّوا لأجل ذلك العتاب من الله، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

وذاق المسلمون مرارة الهزيمة في بداية الغزوة، ووطأة الفرار أمام زحف المشركين ونبالهم واشتداد هجمتهم عليهم، فحجب هذا الإعجاب النصر المنشود.

فالنصر ليس بكثرة الأعداد والعُدد، ولا حتى بوجود النَّبيِّ ﷺ متى وقعت المخالفة، وإنما هو بتوفيق الله، وتثبيت من عنده، يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾؛ فجاءهم المدد لتثبيتهم وتقويتهم، حيث أنزل الله جنودًا، وكان النَّصر عقب ذلك بإذنه وفضله.

□□□

□ الحذر من دعوى الجاهلية: وهو مأخوذ من أمر النَّبيِّ ﷺ للعبَّاس رضي الله عنه أن ينادي الصَّحابة؛ فقال بأعلى صوته: أينَ أصحاب السمرة...» يقول ابن باديس رحمه الله: «ثبت في «صحيح مسلم» في غزوة حنين أنَّ رسول الله ﷺ قال: «يا عبَّاس نادِ أصحاب السمُرة؛ فنادى بأعلى صوته: أين أصحاب السَّمرة؟ وكانت الدَّعوة: يا معشر الأنصار! يا معشر الانصار! ثمَّ قُصِرَت على بني الحارث بن الخزرج، فصارت يا بني الحارث بن الخزرج! يا بني الحارث بن الخزرج! فكانت الدَّعوة ـ في ذلك اليوم الشَّديد ـ لمن جمعتهم بيعة الرِّضوان، وهُم أهل السَّمرة ثمَّ لمن جمعَهم اسم الأنصار ثمَّ لمن جمعَهم اسم أب؛ وكان ذلك كله حقًّا؛ لأنَّه دعوة إلى الحقِّ»[14]

فمِن أعظم أسبَاب الذُّلِّ والهوان الَّذي تعيشه الأمَّة اليوم مناداتها بهذه الشِّعارات، كالقوميَّة العربيَّة والنَّزعات العرقيَّة، والطَّائفيَّة، بل والحزبيَّة وأهدافها؛ يقول ابنُ باديس رحمه الله: «ليحذر المُسلم من كلِّ كلمة مفرِّقة من كلِّ ما يثير عصبيَّة للباطل وحميَّة جاهليَّة، يدعو بها ولا يجيب مَن دعا إليها، فإنَّ بلاء كثيرًا حلَّ بنا وفتنة كثيرة أصابتنَا من تلك الكلمات المفرِّقة.

ولتكن دعوته ـ إذا دعا ـ بالكلمات الجامعة الَّتي تشعر بالأخوَّة العامَّة وتبعثُ على القيام بالواجب بأيد متشابكة وقلوب متَّحدة، حتَّى إذا دعا جماعةً خاصَّةً يعلمُ منه نفعًا خاصًّا في مكان خاصٍّ، فليكن بما يفهمهم أنَّه إلى الحقِّ دعاهم وعلى القيام به استَعان بهم دونَ إبَاية من انضمام كلِّ مَن ينضمُّ إليهم، فإنَّه ما توجَّه قومٌ إلى نُصرة الله ـ ورضا الله قصدهم ـ إلاَّ كان الله معهم: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[15].

□□□

□ الانتصار للدِّين ونصرة النَّبيِّ الأمين ﷺ: إنَّه لن يستقيم للأمَّة ظلٌّ، ولن تكونَ لها المنزلة، ما دامَت غير قادرة على نصرة هذا الدِّين، ولا قادرة على نُصرة النَّبيِّ ﷺ، إنَّ الأمَّة تبتلى من قبل أعدائها في مقوِّماتها وهويَّتها، قبل أن تبتلى بسلب أراضيها ونهب خيراتها، والصَّحابة الكرام لمَّا فرُّوا ولم يبقَ مع النَّبيِّ ﷺ إلاَّ النَّزر اليَسير، أخذ ينادي بأعلى صوته: «هلمُّوا إليَّ أيُّها النَّاس! أنَا رسُول الله؛ أنا محمَّد بن عبد الله... ثمَّ ركَز بغلتَه قِبَل العدوِّ وهُو يقول: أنا النَّبيُّ لا كذب... أنا ابنُ عبد المطَّلب، ثمَّ أمر العبَّاس فنَادى بأعلى صوته: يا أصحَاب السَّمرة...» ويقول العبَّاس: والله لكأنَّ عطفتَهم حين سمعوا صوتي عطفةُ البقر على أولادها فقالوا: لبَّيك لبَّيك»، وهذا يؤكِّد لنا وجوب الاستجابَة لرسول الله ﷺ فرجَعوا واجتَمعوا إلى رسُول الله ﷺ، مجدِّدين

(14) «الآثار» (160/2).

(15) «الآثار» (160/2).

عزمهم على القتال بصدق وعزيمة، وحسن توكُّل على الله، حَتَّى فرَّت جُموع المشركين، وتحوَّل ميزان القوَّة بإذن الله لصالحهم، فكان النَّصر.

□□□

□ رعاية الله لأوليائه وحفظه لدينه: وذلك لأَنَّ المؤمن الصَّادق لا يستَغني عن تأييد الله وتثبيته طرفة عين، فهو دائم التَّوجُّه إليه والتَّضرُّع له، والخُضوع والاستكانة بين يديه، وربُّه جلَّ وعلا لا يتركه، ولا يسلمه، بل ينصرُه ويؤيِّده ويمنَعه، ويسلِّيه، ولذا قال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

□□□

□ حسن سياسة الأمَّة ورعاية مصالحها: ويظهر ذلك في هذه الغَزوة:

أ. من خلال. تقسيم الغنائم.: وذلك أنَّه شكَّل قاعدةً مهمَّة من قواعد هذا الدِّين، وهي أنَّ العطاء للمَصلحة العامَّة مقدم على العطاء لأجل الحاجة، يقول ابن تيميَّة رحمه الله: «وَلَمَّا كَانَ عَامَ حنين قَسَمَ غَنَائِمَ حنين بَيْنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ وَالطُّلَقَاءِ مِنْ قُرَيْشٍ... أَعْطَاهُمْ لِيَتَأَلَّفَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ عَلَى الإِسْلَامِ وَتَأْلِيفُهُمْ عَلَيْهِ مَصْلَحَةٌ عَامَّةٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَالَّذِينَ لَمْ يُعْطِهِمْ هُمْ أَفْضَلُ عِنْدَهُ وَهُمْ سَادَاتُ أَوْلِيَاءِ اللهِ الْمُتَّقِينَ، وَأَفْضَلُ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ، وَالَّذِينَ أَعْطَاهُمْ مِنْهُمْ مَنِ ارْتَدَّ عَنِ الإِسْلَامِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَعَامَّتُهُمْ أَغْنِيَاءُ لَا فُقَرَاءُ؛ فَلَوْ كَانَ الْعَطَاءُ لِلْحَاجَةِ مُقَدَّمًا عَلَى الْعَطَاءِ لِلْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لَمْ يُعْطِ النَّبِيُّ ﷺ هَؤُلَاءِ الأَغْنِيَاءَ السَّادَةَ الْمُطَاعِينَ فِي عَشَائِرِهِمْ وَيَدَعُ عَطَاءَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ هُمْ أَحْوَجُ مِنْهُمْ وَأَفْضَلُ»[16].

ب. ومن خلال. تعامله مع بعض المنافقين.: لمَّا قال له الرَّجُل: «يا محمَّد! اعدل»، طلب عُمر رضي الله عنه من النَّبيِّ ﷺ أن يأذَنَ له بقَتله: «دعني يا رسُول الله فأقتُل هذا المنافق»، والنَّبيُّ ﷺ لم يُنكر عليه قولَه ذاكَ أي. أضرب رأسَ هذا المنافق.، بل أقرَّه ودعا على المنافق بالخَيبة والخُسران، ثمَّ نصبَ الميزان الدَّعوي الَّذي تنضَبط به الأمُور وهُو أنَّ درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، فكانَت المفسدَة المترتِّبة على قتل هذا الرَّجل أعظم من المصلحة المتحقِّقة من قَتله، ومن ذلكَ حديث النَّاس حديث الشَّامت أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقتل أصحابَه؛ ذلك لأنَّ حقيقةَ هذا الرَّجل غير ظاهرة للنَّاس، ولا يشكُّ عاقل في أنَّ هذه المفسَدة هي أخفُّ المفاسد ومعَ ذلك اعتبَرها، فكيفَ إذا انضمَّ إلى ذلكَ اضطراب وارتداد... فالخَير كلُّ الخير يكمن في الاهتداء والاقتداء به ﷺ.

والحَمد لله ربِّ العالمين.

□□□

(16) «مجموع الفتاوى» (28/579.580).

عباس ولد عمر
إمام خطيب ـ الجزائر

كل مــن عصى الله فهو جـاهـل



يقــول الله تبــارك وتعــالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة النساء].

يقــرأ هذه الآية كثير من النَّاس وهم يفهمُونها على غير وجهها، إذ يتبادر من ظاهرها أنَّ التَّوبــة إنَّما تقبل ممَّن عمل الذَّنب وهو جاهــل بتحريمه، ولا ريب أنَّ هــذا الفهم غير مراد؛ لأنَّــه قد تقرَّر في الشَّريعــة أنَّ المؤاخــذة علــى الإثــم إنَّما تكون بعد العلم بالتَّحريم.

وأمَّــا المعنَى الصَّحيــح للآية فهو ما فهمَــه أصحــاب النَّبــيِّ ﷺ وهُــم أعلَم النَّاســ بكتاب الرَّبِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ وأفقههم لخطابه، فعَن أبي العالية أنَّه كان يحدِّث أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: «كلُّ ذنب أصابه عبد فهو بجهالة»[17].

وعــن قتــادة في قولــه عزَّ وجــلَّ: ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾، قــال: «اجتمــع أصحاب رســول الله ﷺ فرأوا أنَّ كلَّ شــيء عصــي بــه الله تعــالى فهو جهالة، عمدًا كان أو غير ذلك»[18].

وعــن مجاهــد في قولــه: ﴿ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ قــال: «كلُّ مــن عصــى ربَّــه فهو جاهــل حتَّــى ينزع عن معصيته»[19].

وعلــى هــذا الفهــم المأثــور عــن السَّلــف يكون القيد في الآية ﴿ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ صفة كاشفة وليســ صفة مميِّزة، أي أنَّ الجهالــة ملازمة لكلِّ من عصى ربَّه جلَّ وعــلا، لأجل هذا قَرَنَها ربُّنا بعمل السُّوء في غيــر هــذا الموضع من كتابــه، كما في قولــه: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام]، وقولــه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ

(17) رواه الطَّبري في «جامع البيان» (8847) وابن المنذر في «التَّفسير»، ورواه أيضًا عبد ابن حميد في التَّفسير كما في «الدُّرِّ المنثور».

(18) رواه عبد الرَّزاق في «التَّفسير» ومن طريقه الطَّبري (8848).

(19) رواه ابن أبي حاتم والطَّبري وابن المنذر والبيهقي في «الشُّعب»، ورواه أيضًا عبد ابن حميد في «التَّفسير» كما في «الدُّرِّ المنثور».



لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سورة النحل]، ويشهد له قوله تعالى فيما ذكر عن يوسف: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة يوسف]، وما قاله لنوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة هود]، ومن حديث أبـي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قولـه: «**مَـنْ لَمْ يَـدَعْ قَـوْلَ الـزُّورِ والعَمَـلَ بـه والجَهْـلَ فَلَيْـسَ لله حَاجَـة أَنْ يَـدَعَ طَعَامَـهُ وَشَرَابَـهُ**»[20]، فالجهـل هنـا ليس هو عدم العلم، وإنَّما هو العمل بخلاف ما يقتضيه العلم.

يقـول ابـن القيِّـم رحمه الله: «الجهـل نوعان: عـدم العلم بالحقِّ النَّافع، وعدم العمـل بموجبه ومقتضاه، فكلاهما جهل لغةً وعرفًا وشرعًا وحقيقةً»[21].

وأمَّـا دلالة اللُّغة علـى ذلك فشاهده في قول عمرو ابن كلثوم:

ألا لا يجهلـن أحـد علينـا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وتوجيـه ما نُقـل عن السَّلـف من أنَّ المعاصـي كلَّها جهـلٌ ما قاله ابـن القيِّم رحمه الله: «إمَّا لأنَّـه لم ينتفع به فنُزِّل منزلة الجاهـل، وإمَّـا لجهلـه بسوء مـا تجني عواقب فعله».

وقال شيـخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وسبـب ذلك أنَّ العلم الحقيقي الرَّاسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعـل، فمتى صدر خلافه فلا بـدَّ من غفلـة القلـب عنـه أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم فيصير جهلاً بهذا الاعتبار»[22].

وقال في موضع آخـر: «وإنَّما يحتمل - أي تسميـة العصـاة جهَّـالاً - أمريـن: أحدهمـا: أنَّهـم عملـوه وهـم يجهلـون المكـروه فيه، والثَّاني: أنَّهـم أقدموا على بصيرة وعلـم بـأنَّ عاقبتـه مكروهـة، وآثروا العاجل على الآجل؛ فسمّوا جهَّالاً لإيثارهـم القليل علـى الرَّاحـة الكثيرة والعافيـة الدَّائمـة... والمقصـود هنا أنَّ كلَّ عاص لله فهو جاهل، وكلَّ خائف منه فهـو عالم مطيـع لله؛ وإنَّما يكون جاهلاً لنقصـ خوفه مـن الله، إذ لـو تمَّ خوفه مـن الله لم يعصـ... وذلـك لأنَّ تصوُّر المَخوف يوجـب الهـرب منـه، وتصوُّر المحبـوب يوجـب طلبـه، فـإذا لم يهرب من هـذا ولم يطلب هـذا دلَّ على أنَّه لم يتصوَّره تصوُّرًا تامًّا»[23].

قال الحافـظ ابن رجب وهـو يتكلَّم عن فقـه هذه الآيـة: «وعمل السُّـوء إذا انفرد يدخل فيه جميع السَّيِّئات صغيرها وكبيرها، والمـراد بالجهالة الإقدام على السُّـوء وإن علـم صاحبه أنَّه سـوء، فإنَّ كلَّ مـن عصى الله فهـو جاهل، وكلَّ من أطاعه فهو عالم، وبيانه من وجهين:

أحدهما: أنَّ من كان عالمًا بالله تعالى وعظمتـه وكبريائـه وجلاله فإنَّـه يهابه ويخشـاه، فـلا يقع منـه مـع استحضار ذلك عصيانه، كما قال بعضهم: لو تفكَّر النَّاسـ في عظمة الله تعـالى ما عصوه، وقال آخر: كفـى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

والثَّـاني: أنَّ مـن آثـر المعصية على الطَّاعة فإنَّما حمله على ذلك جهله وظنُّه

(20) رواه البخاري (6057).
(21) «مدارج السَّالكين» (1/467).
(22) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (1/257).
(23) «مجموع الفتاوى» (7/22-23).

أنَّها تنفعه عاجلاً باستعجال لذَّتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التَّخلُّص من سوء عاقبتها بالتَّوبة في آخر عمره، وهذا جهل محض؛ فإنَّه يتعجَّل الإثم والخزي ويفوته عزُّ التَّقوى وثوابها ولذَّة الطَّاعة، وقد يتمكَّن من التَّوبة بعد ذلك وقد يعاجله الموت بغتة، فهو كجائع أكل طعامًا مسمومًا لدفع جوعه الحاضر ورجا أن يتخلَّص من ضرره بشرب الدِّرياق[24] بعده، وهذا لا يفعله إلاَّ جاهل... فتبيَّن بهذا أنَّ إيثار المعصية على الطَّاعة إنَّما يحمل عليه الجهل، ولذلك كان كلُّ من عصى الله جاهلاً وكلُّ من أطاعه عالمًا، وكفى بخشية الله علمًا وبالاغترار به جهلاً»[25].

ويوضح ما نقل عن هؤلاء الأعلام أنَّ الأصل في العلم أن يطلب لأجل العمل، فلا تبرأ ذمَّة طالبه إلاَّ إذا أتبعه بالعمل به، فالعلم وسيلة والعمل ثمرة وغاية، ولهذا ورد في نصوص الشَّرع ذمُّ من تعلَّم العلم وترك العمل به، فعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لاَ تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ**»[26].

وكان أبو الدَّرداء رضي الله عنه يقول: «إنَّما أخشى من ربِّي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر! فأقول: لبَّيك ربِّي، فيقول لي: ما عملت فيما علمت»[27].

(24) الدِّرياق ويقال كذلك التِّرياق: دواء السُّموم.
(25) «لطائف المعارف» (445-446).
(26) رواه التِّرمذي (2416) وغيره.
(27) رواه البيهقي في «الشُّعب» (1711)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (129).

ولهذا كان ﷺ يستعيذ بربِّه من علم لا ينفع، عن زيد ابن أرقم رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا**»[28].

والعلم الَّذي لا ينفع هو الَّذي لا يعمل به صاحبه؛ لأنَّه تعلَّم ما يكون عليه حجَّة عند ربِّه، قال الحسن البصري: «العلم علمان: فعلم في القلب؛ فذلك العلم النَّافع، وعلم على اللِّسان؛ فذلك حجَّة الله على ابن آدم»[29].

وما ورد في نصوص الكتاب والسُّنَّة من مدح العلم والثَّناء على أهله إنَّما يتنزَّل على العاملين به، وأمَّا من لم يكن كذلك فهذا لا يستحقُّ أن يوصف بالعلم حقيقة، قال فضيل بن عياض: «لا يزال العالم جاهلاً بما علم حتَّى يعمل به؛ فإذا عمل به كان عالمًا»[30].

وعن عمران المنقري قال: قلت للحسن يومًا في شيء قاله: يا أبا سعيد! ليس هكذا يقول الفقهاء! فقال: «ويحك! ورأيت أنت فقيهًا قطُّ؟! إنَّما الفقيه الزَّاهد في الدُّنيا، الرَّاغب في الآخرة، البصير بأمر دينه، المداوم على عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ»[31].

وعن مسعر أنَّ سعد بن إبراهيم قيل له: من أفقه أهل المدينة؟ قال: «أتقاهم لربِّه»[32].

ولمَّا كان العلم مقتضيًا للعمل

(28) رواه مسلم (2722).
(29) رواه الدَّارمي في «السُّنن» (364)، ورواه ابن أبي شيبة (34361) عنه مرفوعًا ولم يصحَّ. قال الألباني في «الضَّعيفة» (415/8) عن الموقوف بعد أن ضعف المرفوع لعلَّه أصح.
(30) رواه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (43).
(31) رواه الدَّارمي (294).
(32) رواه الدَّارمي (295).

مستلزمًا له بيَّن لنا ربُّنا في كتابه أنَّ أكثر النَّاس خشية له إنَّما هم العلماء، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28].

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يقتضي الحصر من الطَّرفين: أن لا يخشاه إلاَّ العلماء، ولا يكون عالمًا إلاَّ من يخشاه، فلا يخشاه إلاَّ عالم، وما من عالم إلاَّ وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم»[33].

فدلَّ هذا على أنَّ العلم المحمود لا يتوصَّل إليه العبد بحفظ النُّصوص، واستحضار النُّقول، والإحاطة بالمذاهب، والعكوف على المكاتب، ولو جمع إلى ذلك فصاحة اللِّسان، وبراعة البيان فحسب، حتَّى يؤدِّي حقَّ الله فيه بأن يكون عاملاً بمُقتضاه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ليس العلم بكثرة الرِّواية إنَّما العلم الخشية»[34].

وقال أيضًا: «كفى بخشية الله علمًا وبالاغترار بالله جهلاً».

وعن مجاهد قال: «إنَّما الفقيه من يخاف الله».

عن مالك بن مغوَل قال: قال رجل للشَّعبي: أفتني أيُّها العالم! فقال: «العالم من يخاف الله».

وسُئل الإمام أحمد عن معروف وقيل له: هل كان معه علم؟ فقال: «كان معه أصل العلم، خشية الله عزَّ وجلَّ».

قال الحسن البصري: «كان الرَّجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في بصره وتخشُّعه ولسانه ويده وصلاته

(33) «شفاء العليل» (ص172).
(34) رواه أحمد في «الزُّهد» (860).

وزهده»[35].

فالعلم إذن هو الَّذي يورِّث العبد خشية ربِّه، فيدفعه إلى المسارعة إلى مرضاته، ويحجزه عن انتهاك حرماته، فمتى تخلَّفت هذه النَّتيجة، وفقدت تلكم الثَّمرة دلَّ على أنَّه بوصف الجهل أحرى، وأنَّه قد ضرب من الغواية بالسَّهم الأوفى، وبيان ذلك أنَّ العلم يحمل صاحبه على مراقبة ربِّه والاستحياء من نظره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر]، واجتراح العبد للمعصية لا يحصل منه إلاَّ مع غياب هذه الحقائق عن القلب، فيكون العبد حينها في حال من الجاهليَّة ولا بدَّ.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ويدلُّ على صحَّة هذا أنَّ مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد، فإنَّه لو رأى صبيًّا يتطلَّع عليه من كوَّة لم تتحرَّك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله إليه ورؤيته له، وعقابه على الذَّنب وتحريمه له وسوء عاقبته، فلا بدَّ من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه، فحينئذ يكون وقوعه في المعصية صادرًا عن جهل وغفلة ونسيان مضادٍّ للعلم، والذَّنب محفوف بجهلين: جهل بحقيقة الأسباب الصَّارفة عنه، وجهل بحقيقة المفسدة المترتِّبة عليه، وكلُّ واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة، فما عُصي الله إلاَّ بالجهل، وما أُطيع إلاَّ بالعلم»[36].

وللحافظ ابن رجب جزء في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ بسط فيه هذه المسألة الجليلة وبيَّن وجوه التَّلازم بين العلم والخشية، والجهل والمعصية، وفيه أيضًا توضيح لأنواع الجهالات الَّتي يحتفُّ بها الذَّنب والَّتي وردت الإشارة إليها في كلام ابن القيِّم قريبًا[37].

وخلاصة القول إنَّه لا سعادةَ للعبد في دنياه ولا نجاةَ له في آخرته إلاَّ بالعلم والعمل، والمتأمِّل لكتاب الله سبحانه، يتجلَّى له اقترانهما وعدم انفكاكهما، وذلك في مواضع كثيرة؛ منها قوله جلَّ وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: 33]، فالهُدى هو العلم النَّافع، ودين الحقِّ هو العَمل الصَّالح كما قال العلماء، ومنها: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر]، فالقانت بين يدي ربِّه خوفًا من عقابه وطمعًا في رحمته وثوابه هو العالم بربِّه حقيقة؛ لأنَّه سبحانه ذكر في أوَّل الآية الاجتهاد في الطَّاعة وختمها بمدح أهل العلم ليبيِّن لعباده أنَّ العلم النَّافع متى وجد في القلب أورث صاحبه العمل الصَّالح، ومن الآيات قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي

(35) رواه الدارمي (385).

(36) «مفتاح دار السَّعادة» (1/249-250).

(37) انظره برمَّته ضمن «مجموع رسائل ابن رجب» (1/335-344).

﴿ ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص: 45].

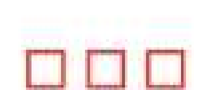
قال ابن تيمية رحمه الله: «فوصفهم بالقوَّة في العمل والبصيرة في العلم»[38].

والعبد فيه قوَّتان: قوَّة علميَّة وقوَّة عمليَّة، فمتى تخلَّفت إحدى القوَّتين وقع الفساد في دين المرء، فإنَّه إذا تعبد لله بغير علم كان مصيره إلى الضَّلال، وإن علم ولم يعمل كانت نهايته إلى الغواية والانحلال، ولهذا نزَّه الله تعالى نبيَّه عن هذين الوصفين المترتبين على فساد القوَّة العلميَّة أو العمليَّة فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: 2].

قال ابن تيمية رحمه الله: «فوصفه بأنَّه ليس بضالٍّ وهو الجاهل، ولا غاو وهو الظَّالم، فإنَّ صلاح العبد في أن يعلم الحقّ ويعمل به، فمن لم يعلم الحقَّ فهو ضالٌّ عنه، ومن علمه فخالفه واتَّبع هواه فهو غاو، ومن علمه وعمل به كان من أولي الأيدي عملاً ومن أولي الأبصار علمًا، وهو الصِّراط المستقيم الَّذي أمرنا الله سبحانه في كلِّ صلاة أن نقول: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة]، فالمغضوب عليهم: الَّذين يعرفون الحقَّ ولا يتَّبعونه كاليهود، والضَّالُّون: الَّذين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم كالنَّصارى»[39].

وقد قال سفيان بن عيينة: «من ضلَّ من علمائنا ففيه شبه باليهود، ومن ضلَّ من عبَّادنا ففيه شبه بالنَّصارى»، فالعصمة إذن لا تتحقَّق إلاَّ بترك التَّشبُّه بالمغضوب عليهم والضَّالِّين، ولزوم الصِّراط المستقيم الَّذي أوجب الرَّبّ على عباده اتِّباعه أجمعين، فبالعلم يعرف الصِّراط المستقيم، وبالعمل يتمُّ السَّير فيه، يقول ابن تيمية رحمه الله كذلك: «فإنَّ العلم قائد والعمل سائق، والنَّفس حرون[40] فإن ونى[41] قائدها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلم حار السَّالك ولم يدر أين يسلك، فغايته أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حاد[42] السَّالك عن الطَّريق فسلك غيره مع علمه أنَّه تركه، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره، وهذا حائد[43] عن الطَّريق زائغ عنه مع علمه به»[44].

وخير ما نختم به دعاء من أدعية النَّبيِّ ﷺ فيه دلالة لما تقدَّم تقريره من أنَّ السَّعادة والنَّجاة والفوز والفلاح منوط بتحصيل العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وهو قوله: «**اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا**»[45].





(38) «مجموع الفتاوى» (7/540).
(39) «جامع المسائل» (3/85).

(40) يقال فرس حرون أي: لا ينقاد.
(41) ونَى: ضَعُفَ وفتَر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ [طه: 42]، والَّذي في المطبوع وني بالياء في هذا الموضع والَّذي بعده.
(42) في الأصل حار، ولعلَّ الصَّواب ما أثبته.
(43) في الأصل حائر.
(44) «مجموع الفتاوى» (10/544).
(45) رواه التِّرمذي (3599)، وابن ماجه (251)، وصحَّحه الألباني.



أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

التلقيح الاصطناعي

▣ السُّؤال:

شيخنا: أفتنا في امرأة سقط لها الحمل مرَّتين، وبعدما أُجريت لها التَّحاليل الطِّبيَّة في كلِّ مرَّة منها لم يشخِّصوا المرض وبالأحرى لم يثبُت هناك مرض أصلاً، وفي نفس الوقت لم تحمل بعد، فتعيَّن للأطبَّاء بعد متابعتها بالأدوية، أنَّ الهرمونات البيضويَّة في رحمها ضعيفة، فاضطرُّوا إلى عمليَّة التَّلقيح الاصطناعي كحلٍّ أخير، وهو أخذ منيِّ الزَّوج وزرعه في بويضة الزَّوجة، وربَّما كلُّ هذا يندرج تحت عمل شعوذي أو سحر... إلخ[1].

فهل يجوز شيخنا هذا التَّلقيح، مع التَّوضيح والشَّرح، ونطلب منك نصيحة للزَّوجين، فهما وبعد خمس سنوات لازالا صابرين يحتسبان أمرهما لله تعالى، وجزاكم الله خيرًا ونفعنا الله بعلمكم وحفظكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

▣ الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فهذه المسألة عند الفقهاء ترجع إلى مدى اعتبار العقم ضررًا، فمن اعتبره كذلك أباح اللُّجوء إلى طلب علاجه كغيره من الأمراض كالعمى والعرج بجامع إصابة ينتج عنها خلل وظيفي، وهو ما قرَّره المجمع الفقهي الإسلامي في دورته الثَّالثة المنعقدة في عمان (صفر 1407هـ) أنَّ فيه طرقًا جائزة وأخرى محرَّمة شرعًا، وممَّا قرَّروه أنَّه لا حرج في اللُّجوء إلى تلقيح بويضة الزَّوجة بمني زوجها تلقيحًا اصطناعيًّا ثمَّ إعادته إلى رحم الزَّوجة ليتمَّ الحمل عاديًّا عند الحاجة مع التَّأكُّد على ضرورة الأخذ بكلِّ الاحتياطات اللاَّزمة.

أمَّا من لم يعتبره ضررًا لا يرى إباحة علاج العقم لانتفاء الضَّرورة الشَّرعيَّة والحاجة الشَّديدة إلى إزالته.

والَّذي تميل إليه نفسي أنَّ العقم يمكن اعتباره ضررًا نفسيًّا يولِّد آلامًا عميقة وسط الأسرة الخالي بيتها من الأطفال، وبوجود كلِّ ألم تكمن الضَّرورة والحاجة، إذ الأمر إذا ضاق اتَّسع، غير أنَّ الَّذي يعكِّر على الحكم بالجواز على عمليَّات التَّلقيح الصِّناعي خطورة احتمال الخطأ فيها وترتب اختلاط النَّسب بالتبع، إذ لا يأمن أن يدخل في العمليَّة ما هو محظور كأن يضيف المختص في المخبر إلى مني الرَّجل

(1) كان الزَّوج له ضعف جنسي حاد فلمَّا أرقي شفي بإذن الله تعالى، أمَّا عند الزَّوجة فقد شرعت في البكاء أثناء الرقية، ولم تستمر بعد ذلك في الرُّقية.

الضَّعيف منيًّا آخر ليقويه، أو بغير بعض مقوِّمات بويضة الزَّوجة بإحلال مقوِّمات أخرى لبويضة أجنبيَّة قصد إصلاحها وطمعًا في رفع نسبة النَّجاح، علمًا أنَّ التَّنافس بين المراكز المخبريَّة المتعدِّدة في تحسين نسبة النَّجاح وطلب الرِّبح والتِّجارة فيه لا يستبعد من ورائه - إطلاقًا - وقوع إهمالات وتجاوزات، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى المساس بعرض الرَّجل ودينه، فهذه المفسدة الشَّرعيَّة مرتبطة أساسًا بعدالة المختصِّين المباشرين لعمليَّة التَّلقيح الصِّناعي ومقدار الأمانة وحجم الثِّقة الموضوعة فيهم، فضلًا عن تكشُّف المرأة أمام طبيبة أو طبيب غالبًا يقوم بقذف البويضة الملقحة بحقنة في جهاز المرأة التَّناسلي.

ولا يخفى أنَّ مثل هذه المفاسد من العسير الاحتراز منها واتِّخاذ الاحتياطات اللَّازمة لها، وإذا تعذَّر ذلك علم أنَّ مصلحة الإنجاب عورضت بمفسدة اختلاط الأنساب الواجب تقديمه حالة التَّعارض عملًا بقاعدة درء المفاسد مقدَّم على تحقيق المصالح، ولا يخفى - أيضًا - أنَّ مثل هذه المفاسد غائبة في المقيس عليه العمى والعرج فلا يصحُّ القياس مع ظهور الفارق بينهما والطَّارئ الَّذي يلتبس به أحدهما.

▣ ▣ ▣

في حكم التَّداوي عند طبيب نفسيٍّ

▣ **السُّؤال:**

هل يجوز استشارةُ طبيبٍ أو طبيبةٍ في علم النَّفس عن بعضِ الأمورِ غيرِ العقديَّة وتكون استشارةً أو معالَجةً من بابِ الأخذِ بالأسباب، والله هو الشَّافي؟ وجزاكم الله خيرًا.

▣ **الجواب:**

إن كان الطَّبيبُ النَّفسيُّ موثوقًا به، وأهلًا لممارَسة عمله، ومأمونًا بحيث لا يستخدم - في علاجه للأمراض النفسيَّة والاضطرابات العصبيَّة - الطُّرُقَ المحرَّمةَ شرعًا كالتَّنويم المغناطيسيِّ، أو يلتجئ إلى ما وراءَ الأسباب العاديَّة لرفع الدَّاء النَّفسيِّ، أو يستعمل الطَّريقةَ الفرويديَّةَ في المعالجة بإقناع المريض أنَّ سببَ عقدته النَّفسيَّة واضطرابه العصبيِّ يرجع إلى تقيُّده بالدِّين والأخلاق باعتبارهما - على النَّظرة الفرويديَّة - حواجزَ وعوائقَ تقف أمامَ الإشباع الجنسيِّ؛ ممَّا يُورثه عُقَدًا وأمراضًا، فيدعوه إلى التَّحرُّر من قيودها، وغير ذلك ممَّا فيه إفسادٌ للدِّين والأخلاق وتلبيسٌ على المسلمين، فإنْ خَلَتْ مهنتُه من هذه الهَنَات والمعايب فلا مانعَ من الرُّجوع إليه - استشارةً وعلاجًا - ببذلِ الأسبابِ المباحة لمداواة النَّفس المريضة، إذْ لا يختلف أَمرُ البدنِ والنَّفسِ في إصابتهما بالمرض، وهما مشمولان بعموم الأمر بالتَّداوي في قوله ﷺ: «يَا عِبَادَ اللهِ! تَدَاوَوْا؛ فَإِنَّ اللهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ شِفَاءً - أو قال: دَوَاءً - إِلاَّ دَاءً وَاحِدًا»، قالوا: يا رسولَ الله! وما هُوَ؟ قَالَ: «**الهَرَمُ**»[2]، وفي قوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[3].

والأصلُ أنَّ المرأةَ لا تعالجُ إلاَّ عند طبيبةٍ إن وُجِدَتْ، وكذلك الرَّجُلُ يتداوى عند طبيبٍ رجلٍ، فإن تعذَّر فيجوز استثناءً من الأصلِ السَّابق، وذلك إذا أُمنَت الفتنةُ بالتزام الضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ المبيَّنة في رسالتنا «نصيحة إلى طبيب مسلم»[4]، منها: تجنُّبُ الخلوةِ والمسِّ والمصافحةِ والنَّظرِ الممنوع، ونحو ذلك من الضَّوابطِ الشَّرعيَّةِ المتعلِّقةِ بشخصيَّة الطَّبيب وأخلاقيَّاته.

هذا؛ وجديرٌ بالتَّنبيه أنَّ الرُّجوعَ إلى الطَّبيبِ النَّفسيِّ - استشارةً أو علاجًا - تسبقه مرحلةُ تشخيصِ المرض، فإن تأكَّد أنَّه مرضٌ من نوع المسِّ الشَّيطانيِّ أو السِّحر؛ فإنَّه لا يصير إلى الطَّبيبِ النَّفسيِّ؛ لأنَّ هذا النَّوعَ من المرض لا يدخل ضِمْنَ الطِّبِّ النَّفسيِّ، وإنَّما يستشير راقيًا كفْءًا مؤهَّلًا أو يعالج عنده لرفعِ المسِّ وحَلِّ السِّحرِ بالنُّشرة الشَّرعيَّة.

أمَّا إن كان المرضُ المشخَّصُ من نوع الوساوسِ الشَّيطانيَّة الَّتي تُورِثُ في نفسِ المريضِ الشَّكَّ والقلقَ والاضطرابَ وما يَنْجَرُّ عنها من الهمِّ والغمِّ والأسى؛

---

(2) أخرجه أبو داود (3855)، والترمذي - واللَّفظ له - (2038)، من حديث أسامة بن شريك العامري رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (3973).

(3) أخرجه أبو داود (3874)، والبيهقيّ في «السُّنن الكبرى» (9/10)، من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه، والحديث حسَّنه الأرناؤوط في تحقيقه لـ«جامع الأصول» (512/7)، وانظر «الصَّحيحة» للألبانيِّ (174/4).

(4) (ص31-34).

فـإنَّ هـذه الحـالات النَّفسيَّـةَ قـد يعود سببُهـا إلى مقارفـةِ المريضِ للذُّنـوبِ وارتكابـه للمعاصـي، والواجـبُ علـى المريضِ ـ والحالُ هـذه ـ الإنابةُ إلى الله بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والتَّـوكُّلُ عليه والإكثارُ مـن الاستغفـارِ، والمحافظةُ علـى عموم الأذكارِ في الصَّبـاح والمسـاءِ، ومـنَ أهمِّهـا: قراءةُ القـرآنِ وفاتحـةِ الكتابِ وآيـةِ الكرسـيِّ والمعوِّذات: «الإخلاص» و«الفلـق» و«النَّاس»، وغيرها ممَّا يحفظ مـن أمرِ الله، كمـا عليه اختيـارُ الرُّفقةِ الصَّالحةِ الَّتي تـؤازره، ومَلْءُ الفراغِ بما يُفيـده في معاشـه ومعاده، فـإنَّ الوَحْدَةَ والعُزلةَ للمصابِ بالوسواسِ من أسبابِ زيـادةِ الكبت والإحبـاط النفسيِّ، وهذه الحالةُ لا يُرَاجِعُ فيهـا الطَّبيبَ النَّفسيَّ، بـل يتصـدَّى لهـا المصـابُ شخصيًّـا بالصُّمـودِ ضـدَّ وساوسِ الشَّيطـانِ ويعصيـه فيمـا يوحيـه إليه مـن شكوك ووساوسَ، ويستعين بالله عليه، ويتضرَّعُ إلى الله بالدُّعـاء في أوقـات الاستجابـةِ وفي جـوفِ اللَّيلِ أو ثلثـه الأخيرِ، ويدعوه بـأنْ يحفظَـه مـن الشَّيطـانِ ويخلِّصَـه مـن وساوسـه وشرَاكـه ومكايـده، فإنِ التزم هذه الطَّريقـةَ الشَّرعيَّةَ بإخلاصٍ وصـدقٍ؛ فـإنَّ الله تعـالى يُبْعِـد عنه ما يخشاه ويحقِّقُ له مـا يرجوه ويتمنَّاه من الخيـرِ، فيسكـن قلبُـه وتطمئـنُّ نفسُه، ذلك لأنَّ الله تعـالى سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعَوَاتِ، والعلم عند الله تعالى.

▣ ▣ ▣

في مصطلح العامي والحشوي

▣ **السُّؤال:**

أحسـن الله إليـك، انتشـرت في هذه الأزمـانِ مصطلحاتُ «العاميِّ» و«العوامِّ»، فما المقصود بها؟

وهـل الَّـذي يُطلقهـا علـى غيرِ السُّنِّيِّين أو السَّلفيِّين مصيبٌ في ذلك؟ أرجـو منكم البيـانَ الشَّـافيَ في هذه المسألةِ، وبارك الله فيكم.

▣ **الجواب:**

العاميُّ: جمعُـه عوامٌّ، وهو: المنسوبُ إلى العامَّة من النَّاس، ويُطلق على العوامِّ ـ أيضًـا ـ: الجمهـورُ مـن النَّاسِ بمعنى معظمِهـم وجُلِّهـم، والعامَّةُ مـن النَّاسِ ضدُّ الخاصَّة، والمرادُ بالخاصَّة ـ في بابِ العلـم ـ: الأثباتُ وأهـلُ النَّظرِ والاجتهادِ والبصـيرة، وأهلُ الحَلِّ والعقـد، الَّذين لهم مزيدُ رتبة شرف العلم على العوامِّ؛ لذلك لا اعتبارَ للعوامِّ في الإجماع مطلقًا اتِّفاقًـا أو خلافًـا عنـد الأكثريـن مـن العلمـاء والأصوليِّـين؛ لأنَّهـم حشـوٌ من النَّاسِ لا يُعتمد عليهم لجهلهم، والحشوُ من الكلام هو الفضلُ الَّذي لا خيرَ فيه.

هـذا؛ والمعلـومُ أنَّ مـن سمـةِ أهـلِ الأهـواءِ: بُغْضَهـم للسَّلـفِ أهـلِ السُّنَّةِ والجماعـةِ ولمزَهـم وتعييرَهـم بألقـابٍ شائنة ابتدعوها، منهـا: الحشويَّةُ نسبةً إلى حَشْوِ النَّاس، وهمُ العامَّةُ والجمهورُ، ولهم في ذلك ألقابٌ أخرى.

وأوَّلُ مـن أطلـق كلمـةَ «الحشويّـة»: عمرُو بنُ عُبَيْـد، رأسُ المعتزلة حين ذُكر لـه عـن عبـدِ اللهِ بـنِ عُمَـرَ رضي الله عنهما ما يخالف مقولتَـه[5]، فقال: «كان ابنُ عمرَ حشويًّـا»[6]، وكان المراد بهـذا اللَّفظُ في اصطلاحِ من قاله العامَّةَ والجمهورَ الَّذين هم حشوٌ لا يُعتمد عليهم لجهلهم.

ولمَّـا استـأذن ابـنُ أبـي داودَ على الجاحـظ ـ وكان مُتكلِّمًـا معتزليًّـا ـ قال: «مـن أنتَ؟» قـال: «رَجُـلٌ مـنْ أَصْحَابِ الحَدِيثِ»، فقال: أَوَمَا عَلِمْتَ أَنِّي لاَ أَقُولُ بِالحَشْوِيَّةِ؟»[7] طعنًا منه في أهل الحديث والأثـر، قـال أبو حاتم الـرَّازيُّ: «علامةُ أهل البدع الوقيعةُ في أهلِ الأثرِ، وعلامةُ الزَّنادقـةِ تسميتُهم أهلَ الأثـرِ حشويَّةً، يريـدون بذلـك إبطـالَ الأثـر، وعلامةُ القدريَّـةِ تسميتُهم أهلَ السُّنَّـةِ مُجْبِرَةً، وعلامـةُ الجهميَّة تسميتُهم أهـلَ السُّنَّة مشبِّهةً، وعلامةُ الرَّافضةِ تسميتُهم أهلَ الأثرِ نابتةً وناصبةً»[8].

والمنصفُ إذا حقَّـق النَّظرَ في منهج أهل الكلام في التَّأليف والتَّنظير يلاحظ زهادةَ اعتمادهم على الأحاديثِ والآثارِ، وحلـولَ المـراءِ والجـدالِ والخصومـاتِ محلَّها، ومعظمُ مصنَّفاتهم ومناظراتهم ومقالاتهم يحشونها بالظُّنـونِ والأوهامِ والخيـالِ مع إثقـالِ الكلام بمـا لا طائلَ تحتـه، ومفـرَّغٌ غالبًـا مـنَ بركـةِ العلمِ وصحَّـةِ الاعتقـاد، فناسب أهـلَ الكلامَ ومـن علـى شاكلتهـم وصـفُ الحشويَّةَ، وهـي جديرةٌ بهم، وهم أحقُّ بها تسميةً، والعلم عند الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على محمَّـد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين وسلَّم تسليمًا.

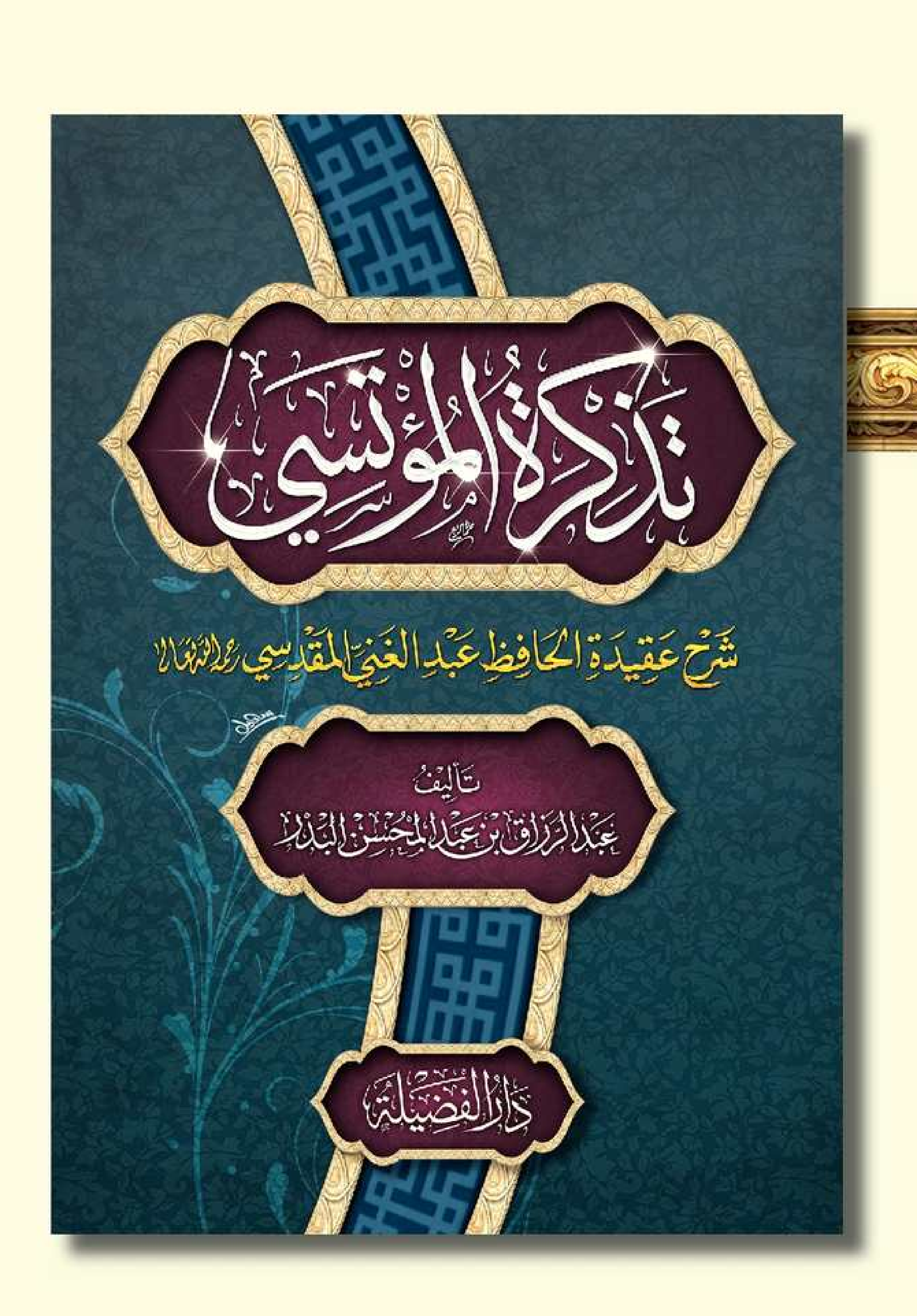
---

(5) انظر: «معجم المناهي اللَّفظيَّة» لبكر أبي زيد (232).

(6) انظر: «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (520/2)، «مجموع الفتاوى» لابن تيميَّة (176،11،10/12)، (511/5).

(7) «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (530/11).

(8) «عقيدة السَّلف» (105).





حي باحة (3)، رقم (28) الليدو . المحمدية . الجزائر
الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021) / **الجوال:** 92 99 06 (0559)
التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)
البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com
الموقع على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com



أعلام لا تنسى...

لمحات من حياة الشيخ عمر العرباوي

(1405هـ ـ 1984)

مهدي جيدال

ليسانس في العلوم الشَّرعية

مـن فضل الله ـ جلّ وعلا ـ على الأمَّة الجزائريَّة أن قيَّض لها علماء عاملين، ودعـاة مصلحين، يرشدون النَّاس إلى دين ربِّ العالمين، بنصوص القرآن وسنَّة النَّبي الأمين ﷺ، وفق فهم السَّلف الأوَّلين.

ومن هؤلاء الأفاضل الشَّيخ الإمام: عمر العرباوي ـ رحمه الله وغفر له ـ نزيل منطقة (الحراش) بالجزائر العاصمة.

يُعدُّ الشيخ العرباوي رحمه الله من أبرز مشايخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الَّذين عمَّروا بعد افتكاك الجزائر لاستقلالها، وأحيوا عهد الدَّعوة الإصلاحيَّة إثرها، وقد قلَّت، بل ندرت الكتابة حول هذا العَلَم الجليل إلاَّ ما نُثر هنا وهنالك في بعض الصُّحف والمجلاَّت.

وأحاول في مقالتي هذه أن أقرِّبَ إلى القرَّاء شيئًا من سيرة هذا الإمام، لا أنسى تلك العبارة الَّتي ردَّدها عليَّ جُلُّ من التقيتُهم في شهاداتهم عن الشَّيخ رحمه الله، خاصَّة عن حياته الأولى أنَّ الشَّيخ لطالما كان يرفُض ويأبى أن يذكر محطَّات حياته ويقول: نحن عملنا لله، أمَّا أن تبحث عن مكان ولادتي، وأين تربَّيتُ، وأين درست، وما عملت، فلا.

المولد والنَّشأة:

هو الشَّيخ الإمام المصلح: الحملاوي العرباوي المعروف باسم: عمر العرباوي[1].

والده هو الشَّيخ صالح بن عبد الكريم العرباوي، وأمُّه هي السَّيدة فاطمة بنت بلقاسم رحمهم الله.

ولد الشَّيخ حوالي (سنة 1324 هـ/1907م) بمدينة (سيدي عيسى) ـ التابعة إداريا اليوم لولاية المسيلة ـ وتنتمي عائلته إلى العرش الأحمر المعروف في تلك النواحي، في بيت طبعه التَّديُّن، فقد كان والده معلِّمًا في الكتاتيب القرآنيَّة[2].

حفظه للقرآن الكريم وطلبه للعلم[3]:

ابتدأ الشَّيخ حفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه على يد والده، ولمَّا أتقن بعض الأجزاء منه نظمه والده ضمن طلبة زاوية (سيدي ساعد البوطْويلي) في شلالة العذاورة بـ(سيدي عيسى) فأتمَّ حفظ القرآن الكريم هنالك وسنه لا يتجاوز 15 سنة.

ثم شدَّ رَحْلَهُ قبالة ولاية (البُلَيدة) لينضمَّ إلى زاوية (سيدي المهدي)، فينهَل فيها من علوم الشَّريعة (من تفسير وفقه وحديث ...).

ـ وكانت عائلة الشَّيخ العرباوي في تلك الفترة تعيش في ضيق وعوَز مادي كباقي العوائل الجزائريَّة ـ وخاصَّة في تلك المناطق النَّائية ـ، وحيث إنَّ الشيخ كان شغوفا بطلب العلم اضطر إلى بيع غُنَيمات كان يَملكها هو وابن عمه الشَّيخ عامر (الذي كان رفيقَ درب الشَّيخ في طلب العلم) من أجل اقتناء نسخة من كتاب «مختصر خليل في الفقه المالكي».

(1) عرف الشيخ رحمه الله باسم عمر العرباوي، وقد كان يمضي رسائله باسم: الحملاوي العرباوي المعروف بعمر، واسم (الحملاوي) هو اسمه الإداري كما هو مثبت في أوراقه الرسمية رحمه الله.

(2) الداعية القدوة (عبارة عن لمحة بسيطة عن حياة الشيخ عمر العرباوي رحمه الله في صفحتين أعدتها عائلة الشيخ رحمه الله) ص1.

(3) ما أذكره تحت هذا العنوان والذي بعده مستقى من لقائي مع أفراد من عائلة الشيخ العرباوي رحمه الله في فترات متعددة في مدينة (الحراش).

ـ ثمَّ أرسله والده إلى عمَّته في مدينة (بئر خادم) بالعاصمة ليواصل دراسته هناك[4]، وكان بالموازاة مع ذلك (يزاول مهنة جني المحاصيل في مزارع (الكولون) حتَّى لا يكون عالة على عمَّته...)[5].

التَّلقين بعد التَّحصيل.. والتَّصدُّر بعد التَّأهُّل:

انقطعت أخبار الشَّيخ بعد فترة (بئر خادم) إلاَّ ما نعلمه من مشاركته في الحرب العالميَّة الثَّانية (1939 ـ 1945م)، فقد زُجَّ به ـ وهو في الثَّلاثينيَّات من عمره ـ في جحيم حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، كما فُعِل بأبناء هذا الوطن، إذ لمَّا لاحت غيوم الحرب مع الألمان أُخذ إلى جبهات القتال في بلجيكا، ورحى الحرب على أوجها هنالك، ولم تطل مدَّة مكثه، فقد تمكَّن من الفرار، والعودة للدِّيار عبر تونس[6].

حَلَّ إذاك بمدينة (البُلَيدة)، وبالضَّبط في ضاحية (حَلْوِيَة ببوفاريك)[7].

فبعد أن اشتدَّ ساعده وقوي عُودُه علميًّا آن له أن يؤدِّي الأمانة الَّتي تحمَّلها؛ وذلك برفع الجهل عن أمَّته تعليمًا ووعظًا وإرشادًا، فأسَّس في (حلوية) مدرسة قرآنيَّة أو زاوية (بالمصطلح المعروف) فكان يؤمُّ النَّاس بها ويلقِّن مَن بها من الطَّلبة مبادئ الإسلام ويعلِّمهم اللُّغة العربيَّة، ثمَّ انتقل بعدها إلى (أولاد يعيش) في (البُلَيدة) كذلك، ليرجع بعدها إلى عشِّه الأوَّل (سيدي عيسى) ليكون ذلك الابن البارَّ الَّذي يخدم بلدته، فكان إمامًا يَؤُمُّ النَّاسَ وواعظًا يذكِّرُهم، وينشرُ بينهم العلم النَّافع ويحثهم على العمل الصَّالح.

التحاقه برَكْب المصلحين مع جمعية العلماء المسلمين الجزائرِيِّين:

ـ تأثَّر الشَّيخ العرباوي بالحركة الإصلاحيَّة للشَّيخ الطَّيِّب العُقبي ـ رحمة الله عليهما ـ، وكان كثير التَّردُّد بعدها على نادي التَّرقِّي بالجزائر العاصمة في أواخر الأربعينيَّات، وهنالك تعرَّف على بقيَّة الأئمَّة العلماء روَّاد الإصلاح وحاملي لوائه: الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي، والشَّيخ العربي التبسي، والشَّيخ عبد اللَّطيف سلطاني...

ـ لا نعلم تحديدًا السَّنة الَّتي التَحق فيها الشَّيخ عمر العرباوي بجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين، ولكن نجزم أنَّ التحاقه بالجمعيَّة كان بعد الحرب العالميَّة الثَّانية، وهذا ما استقيناه من تواريخ مقالاته المنشورة في السِّلسلة الثَّانية من جريدة «البصائر»[8]، وقوائم توزيع المعلِّمين الَّتي كانت تنشر في هذه الجريدة كذلك.

ـ انضوى ﵀ تحتَ راية كتيبة المعلِّمين في جمعيَّة العلماء، وأنشأ عدَّة مدارس حيث حلَّ وارتحل كمدرسة بئر خادم والتي كان مدرسًا بها[9]، وقد نظَّم في هذه المدينة حفلًا حضره الشَّيخ الطَّيِّب العُقبي ﵀ وثُلَّة من الأفاضل، ألقوا خلاله كلمات ومواعظ حثوا فيها الحاضرين على التَّبرُّع لتجهيز هذه المدرسة[10]، ثمَّ انتقل إلى (السّحاولة) وأسَّس بها مدرسة وتزوَّج هنالك[11]، ثمَّ اشتغل مدرِّسًا في المدرسة التَّهذيبيَّة[12] بـ(سانت أوجين) (بولوغين حاليًّا) وخطيبًا في مسجدها، ثم كلّف بالخطابة بمسجد في (بلوزداد) (مسجد العربي التبسي حاليًّا) إلى غاية اعتقاله في سنة 1956م، كما كانت له عدة إسهامات في مناطق أخرى خارج العاصمة، وكان ذا قلم سيَّال، تشهد له بذلك مقالاته في جريدة «البصائر» في سلسلتها الثَّانية.

وقد ترأس كذلك شعبة جمعية العلماء المسلمين في الجزائر العاصمة إلى غاية سنة (1956م) وهي السَّنة التي سُجن فيها.

وجاءت ثورة التَّحرير.. ومن المحن تأتي المنح:

كان الشَّيخ ﵀ ممَّن ساندوا الثَّورة وأيَّدوها وحثُّوا الشَّباب على الجهاد والالتحاق بصفوف المجاهدين، وقد كلَّفته جمعيَّة العلماء المسلمين بتوجيه

(4) ولم أقف على تفاصيل أكثر عن هذه الفترة من حياة الشيخ ﵀.

(5) الشيخ عمر العرباوي ﵀... مدرسة متنقلة، مقال منشور في أسبوعية البيان: السبت ـ الجمعة (من 7 إلى 13) جانفي 2006م.

(6) لقاءاتي مع عائلة الشيخ العرباوي ﵀.

(7) وكان ذلك قبل الإنزال الأمريكي في الجزائر إبان الحرب العالمية الثانية وذلك في نوفمبر 1942م.

(8) أول مقالة نشرت له كانت بعنوان: الوطنية الصادقة في العدد: 73، الصادر في جمادى الآخرة 1368هـ/مارس 1949م.

(9) كما هو مثبت في قائمة المعلمين المنشورة في السلسلة الثانية من البصائر ع: 57 الصادر في المحرم 1368هـ/ نوفمبر 1948م، وقد كان لإنشاء هذه المدرسة قصة إذ إنَّ إحدى العائلات المشهورة في (بئر خادم) تبرَّعت بإسطبل كانت تملكه، وذلك لما عُدم المكان لتدريس أبناء الفقراء إذاك (عائلة الشيخ العرباوي).

(10) انظر مقالة: تدشين مدرسة بئر خادم للشيخ عمر العرباوي/البصائر، العدد: 83، الصادر في شعبان 1368هـ/ جوان 1949م.

(11) وكان هذا حوالي سنة 1949م.

(12) انظر المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر (القطاع الجزائري) ص: 81ـ82.

الشَّبـاب الرَّاغـب في الالتحـاق بالثَّورة، وكان يجمـع المـال والسِّـلاح ويرسلـه للمجاهديـن[13]، حيـث إنَّ الشَّيخ العربي التَّبسـي رحمه الله قـام بتوزيـع المهـام علـى مشايخ ودعاة الجمعيَّـة من أجل التَّعبئة المادِّيَّـة والمعنويَّـة لجهـاد المستدمـر الفرنسي الصَّليبي الحقود، وقد أوكل له الشَّيخ العربي التَّبسِّي مهمَّة الخطابة في المسجـد العتيق (ببلكـور)[14] آنذاك مع مزاولة عملـه في المدرسـة التهذيبية في (سانت أوجين) (بولوغين حاليًّا).

في هـذه الفـترة كان الشيخ لا يزال يقيم في مدينـة (السحاولة)، حيث كان يتنقل منها إلى (بلكـور) رُفقة ابن عمِّه لإلقاء خطـب الجمعة[15]، وفي جمعة من جمعـات رمضان عام 1375 هـ/ الموافق لـ أفريـل سنـة 1956م، وبعـد ارتقـاء الشيخ للمنبر فوجئ بالبوليس الفرنسي عند مدخل المسجـد يطلبون منه النُّزول لأجل اعتقاله[16].

وقد ذكر الشيـخ لأحد المقرَّبين منه أنَّه لما ابتدأ خطبة الجمعة إذ بـ(البوليس الفرنسـي) عنـد مدخـل المسجـد، ولم يقتحموه وأشاروا إليه أن انزل من المنبر بقولهـم: (descend descend)، ولكنه رفض وأبى إلا أن يُتِمَّ خُطبته، وبعد الصلاة اقتـادوه إلى مركز الاستنطاق، وزجُّوا بـه في زنزانة مـدَّة أسبوع كامل، وأفـاده كذلـك رحمه الله أنَّهم قـد نسوه بها؛ ولا نـدري إن كانوا نسـوه حقيقةً أم كان أمـرًا مُدبَّرًا كي يمـوت جوعًا، ولكن الله عـزَّ وجل سلَّـم، فقد أدخـل الشَّيخ معه ـ كما ذكر ـ قطعة خبز كان يأكل منها مدَّة أسبوع حتَّى فتحوا عليه الزنزانة[17].

بعدها نقل الشَّيخ إلى مركز عسكري في العاصمة؛ وكان هذا المركز يجمع فيه السُّجنـاء ويقسمون في أفـواج ويرسلون إلى السُّجون عبر القطر الجزائري.

لم تعلـم عائلة الشَّيخ بمكانه آنذاك، حتَّى وصلتهـم رسالة منـه يُعلِمُهم فيها أنَّه في سجن (البرواقية).

قاسـم الشَّـيخ العربـاوي رحمه الله في سجـن (البرواقيَّـة) ثلَّـة مـن المشايخ، كالشَّيخ أحمد سحنون، والشَّيخ مصباح الحويذق رحمهم الله.

ممَّـا يذكـرُه العـمُّ عبـد الرَّحمـن العربـاوي فيمـا حدَّثـه عنـه الشَّيخ عن فـترة سجـن (البرواقيـة) أنَّ النُّخبـة هنالك كانت تعلِّم المساجين أمورَ دينهم ومبادئَ اللُّغة العربيَّة.

أمضى الشَّيخ في (البرواقية) ثلاث سنـوات نُقل بعدهـا إلى معتقل (بوسوي بوهـران) رفقـة رفاق الدَّعـوة والجهاد الشَّيخ مصباح والشَّيخ سحنون.

لبـث الشَّيـخ في (بوسـوي) قرابـة السَّنـة والنِّصـف، ثـمَّ نُقـل إلى سجـن (آركـول)، لكـن لم تطـل مـدَّة مكثه في هذا الأخير، ليطلق سراحه ويوضع تحت الإقامة الجبريـة في مسكنه بالسحاولة، ثـم انتقلـت العائلة إلى مدينـة (بلكور) وبقـي كذلك تحت الإقامـة الجبرية إلى غاية افتكاك الجزائر لحريتها[18].

وأشرقت شمس الاستقلال واندحر المستدمر... لكن مسيرة الإصلاح لم تنته:

التحق الشَّيخ رحمه الله بصفوف المعلِّمين في المدارس الجزائريَّـة، دون أن يهمـل مهمَّتـه الأخرى وهي الوعـظ والإرشاد، فكان إمامًا متطوعًا في مسجد النَّصر بـ (باب الوادي)[19]، ومعلِّمًا ومُرشدًا بجامع



(13) «الدَّاعية القدوة» ص:1.
(14) هو مسجد العربي التَّبسي حاليًّا في بلوزداد.
(15) العم عبد الرَّحمن العرباوي: ابنُ عمِّ الشَّيخ رحمه الله، وجلُّ المعلومات على حياة الشيخ قبل الاستقلال أفادني بها هو جزاه الله خيرا.
(16) وهذا المسجد له مدخلان مدخل من الشارع الفوقاني، والآخر من الشارع التحتاني، والمار بالمسجد يقابله المنبر مباشرة.
(17) لقاء مع الأستاذ محمد العلجي في ديسمبر (2009م).
(18) «في ذكرى وفاة الإمام الشَّيخ عمر العرباوي... الدَّاعية القدوة» (ص1)، وكذلك لقائي مع عائلة الشَّيخ العرباوي.
(19) «الدَّاعية القدوة» (ص2).

(بلكور)[20]، لينتقل سنة (1967م) إلى مدينـة (الحراش) ويستوطنهـا إلى أن وافاه أجله رَحِمَهُ اللهُ، حيث جعل مساجد هذه البلدة منـارات لنشـر العلـم الشرعي، وهـذا في كل مـن: مسجـد (الأربعـة طـرق)، فمسجـد (جنان مـبروك)، ثم مسجد (الجردي)، وأخيرًا المسجد الكبير (مسجد الإمام الشَّافعي حاليا).

مع جمعية القيم:

وهي جمعيةٌ دينيَّـة ثقافيَّة، تأسَّست في الخامس عشـر مـن رمضـان عـام (1383هـ - الموافـق لـ: 9 فبرايـر 1963م).

وللجمعيـة مجلَّـة موسومـة بـ: «التَّهذيـب الإسلامـي» تصـدر باللغتين العربيـة والفرنسيـة، وصـدر من الأولى عشـرة أعداد، ومـن الثانيـة أحد عشر عددًا، وقد صودر عددها الثاني عشر.

وقـد كان الشيـخ العَربـاوي ضمـن الأمانة العامـة واللَّجنـة الأدبيَّة كذلك، وكانت له مشاركة فيها.

واقعٌ مر.. وحال مبكٍ.. وعزيمة صلبة:

لقـد عـاث المستدمـر الفرنسـي الصَّليبـي في بلادنـا فسـادًا في شتـى الميادين وعلى نطاقات واسعة، ففساد في الأخـلاق والقيم، وفسـاد في الاقتصاد، وإفسـاد في البُنى الاجتماعيـة للمجتمع الجزائـري آنذاك، وهذا مذ وطأت رجل فرنسـا الخبيثـة أرض بلادنـا المسلمة، ومن أبشع وأفظع بل وأعفن فساد مارسه المحتـل، هو الفساد العقـدي الذي صال وجـال لأجل تحقيقه في البلاد ولم يرحل المستدمـر مـن بلادنـا إلَّا بعـد أن ترك طائفـة غذَّاهـا بلِبانهـا، فبثـت الإلحاد والميوعة الفكرية في أوساطها.

يقـول الشيـخ عمـر العَربـاوي رَحِمَهُ اللهُ ذاكـرًا حال هـؤلاء عقـب الاستقلال في كتابـه «التَّخلِّـي عـن التَّقليد والتَّحلِّـي بالأصـل المفيـد»: «ولمـا تمَّ الانتصـار علـى العـدوِّ وطُـرد مـنَ البـلاد، أخـذ الجزائريُّون زمام الحكم بأيديهم، ولكن سرعـان ما تنكـر بعض الشبـاب للدِّين ولعوائـده وأخلاقه، وقطعُـوا صلتَهم به، لعبت المادَّة والشَّهوات بعقولهم، فراجت موجـة ناتجة من الإلحـاد كادت أن تعمَّ طبقَـات الشعب، وأصبـح الإسلام يُتهم بالرَّجعيَّـة والتَّأخُّـر، واختلـط الذُّكـور بالإنـاث في العمـل والدراسـة، وفتحـت مصراعيها للأفـكار الهدامة والإباحية المطلقـة، فتحـوَّل المجتمـع إلى مجتمـع غربـي في عوائـده ولغتـه وأخلاقـه، وأصبحنا في كل يوم نرى تدهور الشباب نحـو الرذيلـة والفساد، لأنـه لا يريد إلا الهوى المضلل، وإطـلاق العنان لشهواته العارمـة التي لا تعرف الحدود ... وترك الأخـلاق الفاضلة التي كانت لأجدادهم وأسلافهـم، والتـي حفظـت المجتمـع الجزائري منذ فجـر التاريخ إلى الثورة المظفرة الكبرى.

فبهـذه الأخـلاق الحميـدة بـرز المجاهدون الأبرار ورأينا قانون الإسلام هو السائد على البلاد كلها...»[21].

وفي أواخـر السَّبعينيَّات ظهرت نابتة جعلت حمل السِّـلاح طريقًا ومنهجًا لها في التَّغيير، بلا سند علمي يتوكَّأون عليه، فقصدوا الشَّيخ عمر العرباوي رَحِمَهُ اللهُ، حتى يظفروا منه ولو بالسكوت عن أعمالهم، ومـا كان ذهابهم إليـه إلَّا بعد أن أعلنوا عن عملهم المسلـح وانتشر أمرهم، على مذهـب: (اعمـل ثـمَّ استـدل)، لكـن (الشَّيخ رفض ذلـك بشدَّة، أمَّا ما يشاع من أنَّ الجماعـة كانت تستفتيه في حكم ذلك، فهو لا يزيد عن كونه إشاعة، فقبل أن تشتـدَّ أحداث السِّـلاح رفض الشَّيخ العرباوي بدايتها)[22].

ثورة الرَّوافض.. وبداية المدِّ الشِّيعي:

لقـد كان لفئام من أمَّتنا نصيب من التَّأثـر بالثَّورة الإيرانيَّـة الشِّيعيَّة أواخر السَّبعينيات، فمـن متعاطف معها، ومن مشيـد بإسلاميَّتهـا (زعمـوا)، ومـن متشـرِّب لأفكارهـا عيـاذًا بـالله، فقـد أصاب الناس آنذاك جنون وهوس بذلك المـدِّ الخبيـث، وقـد كان الشَّيـخ رَحِمَهُ اللهُ بالمرصـاد لدحـض هـذا الفكـر الملوث بالتوجيـه والتعليم من جهـة، وبالتذكير بسُنيَّـة هذه البلاد - بـلاد الجزائر - من جهـة أخـرى، وبالتنويـه بثورتهـا التـي قامـت بصيحـات: الله أكـبر ولإعـلاء كلمة الإسلام الحـق بعد طرد المستدمر الفرنسـي الصليبي، فقد كان رَحِمَهُ اللهُ على دراية تامـة بمروق هذا المذهـب وأهله، لكـن الشيـخ رَحِمَهُ اللهُ لم يعمـر طويـلا إذ عاجلته المنية مع السنوات الأولى لبداية ظهور هذا المرض العقدي.

وممَّا يذكر عن مواقفه تلك الخطبة التي ألقاها في المسجد الكبير (المعروف حاليـا بالشافعي) بالحراش حيث (إنَّ

(20) «مجلَّة التَّهذيب الإسلامي» (ع8، ذو الحجَّة 1385هـ/ مارس 1966م).

(21) «التَّخلِّي عـن التَّقليد والتَّحلِّي بالأصـل المفيد» (ص8).

(22) «محطَّات في تاريخ الحركة الإسلاميَّة بالجزائر» (ص189).

وزارة الشؤون الدينية والأوقاف كانت تنظم ملتقيات الفكر الإسلامي سنويا، وقد سنت في أثناء الملتقى إرسال بعض العلماء والأساتذة والباحثين ممن يُدعون إلى الملتقى من أقطار شتى أن يتوزعوا على مساجد الجزائر من أجل توعية الناس وتوجيههم، وفي إحدى السنوات[23]... كان من نصيب مسجد الشافعي بالحراش مجيء أحد المفكِّرين الشيعة وهو التسخيري)[24].

يذكر الأستاذ محمَّد العلجي عن تلك الواقعة أن الحضور كانوا يظنُّون أنَّ التسخيري هو مَن سيُلقي خطبة الجمعة، فلمَّا تأخَّر عن الحضور شرع الشيخ العرباوي رحمه الله في إلقاء درس الجمعة، و بعد شروعه بقليل جاءه خبر قدوم هذا الرافضي، فقام فاسحا المجال له مع دهشة الحضور لهذا التصرف، لكن يبدو أنَّ الشيخ قام لأجل حاجة في نفسه كان أعدها[25].

(حاول التَّسخيري أن يحرك مشاعر الحاضرين بذكر أمجاد الثورة الإيرانية وأنها إسلامية لا شرقية ولا غربية، وكأنَّها أعظم ثورة في القرن العشرين)[26]، لكن وبينما كان هذا الموفد يسرد مآثر ثورتهم المزعومة ... إذ بالشيخ ينظر إلى الوقت ثم يعتلي المنبر إيذانًا منه بإلقائه خطبة الجمعة، مع أنَّ المدرس لم يُنه كلامه بعد، فما كان منه رحمه الله بعد أن شرع في خطبته (إلا أن ذكَّر بأمجاد الثورة الجزائرية وإسلاميتها وبطولات المجاهدين بحيث أرجع الناس إلى جادة الصواب بعد أن كاد يزيغ قلوب بعضهم)[27].

يقول الأستاذ العلجي: هنا بدأ التساؤل منا فبعد أن كان الحضور يترقبون إلقاء التسخيري خطبة الجمعة إذ به يلقي الدرس عوضا عنها، وحتَّى هذا الدَّرس بتره الشيخ بصعوده المنبر ليخطب في الناس الجمعة.

ويذكر الشيخ فريد عزوق أنَّ الشيخ رحمه الله نبَّههم بعد الخطبة إلى سبب ذكره لثورة الجزائر وإسلاميتها، وذلك أنَّه خشي من خطر التشيع على الحاضرين.

(وكان يرفض ذهاب الشباب إلى إيران لطلب العلم، وكلُّ مَن كان يَستشير الشيخ في ذلك ينصحه بالذهاب إلى الأزهر في مصر، في هذا الوقت لم تكن العامة تعرف معنى هذا الأخطبوط الشيعي، ناهيك عن معرفتها بحقيقة دين الروافض، لذلك كان الشيخ يتحاشى ذكر مثالب القوم وبطلان دينهم إلا فيما ندر حفاظا على عقول العامة كونها لا تستوعب مثل هذا الأمر آنذاك)[28].

بل وكان الشَّيخ يشدُّ من أَزْرِ طلبته ويَحثُّهم على تبيان ضلال دين الرَّوافض، ومن ذلك ما حدَّثني به الشَّيخ فريد عزوق حيث قال: وأذكر أنَّ بعض الناس حاول أن يحطَّ من قدر الشيخين (الشيخ محمود لقدر والشيخ محمد السعيد رزاز رحمه الله) أمامه ويبين له جرم ما صنعوا، لكن ما كان من الشيخ إلا أن أثنى على جهدهما، وكان الشيخ السعيد رزاز رحمه الله حاضرا في تلك الجلسة فأتاح له الشيخ المجال أن يتكلم بين يديه عن رأيه في الثورة الإيرانية وما يعرفه عنها.



طريقة الشيخ عمر العرباوي في التدريس والخطابة:

نحا الشَّيخ في دروسه طريقتين في الإلقاء والتعليم وذلك بحسب الحضور:

- طريقته مع العوام: والَّتي غالبًا ما يكون الطَّرح فيها سهلاً حتَّى يحصل المأمول منها؛ فكان ينتقي آية من كتاب الله أو حديثًا من سنَّة رسول الله ﷺ ويسهِّل معانيهما، ويربط هذه النُّصوص بالواقع المعاش حتَّى يحصل النَّفع من هذا الدرس. يقول الشيخ فريد عزوق: كان الشيخ رحمه الله يأخذ بعض الآيات أو بعض الأحاديث ويشرحها للعوام بشرح سهل، ويربطها بالواقع ويشير إلى بعض الأمور الَّتي ينبغي أن يدخلها الإصلاح ممَّا يتعلَّق بحياة الأسر أو ما يتعلَّق بالشؤون العامَّة... يشير فيها إلى ضرورة التزام الدِّين والمحافظة على الصلوات الخمس في المساجد، وضرورة التزام الحشمة والاحتجاب بالنسبة للمرأة، والابتعاد عن المنكرات والمحرمات كالتدخين والخمر والزنا[29].

(23) وكان هذا الملتقى سنة (1981م) بالجزائر العاصمة.
(24) من لقائي لي مع الشيخ فريد عزوق.
(25) لقائي مع الأستاذ محمد العلجي.
(26) لقائي مع الشيخ فريد عزوق.
(27) المصدر السابق..
(28) لقائي مع الأستاذ محمد العلجي.
(29) لقائي مع الشيخ فريد عزوق.

ـ طريقته مع طلبة العلم: كان الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يسلك مع طلبته في هذه الحلقات الطريقة الأكاديمية في التدريس. وقد كان الشيخ مدرسًا في متوسطة الفرزدق. فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ يوصي بكتابة الدرس المراد شرحه في السبورة بيوم قبل إلقائه، وينقله الطلبة في كراساتهم بغية استعداد الطلبة وتهيئتهم لشرح المادة التي ستلقى سواء كانت فقهًا أم عقيدة[30]، وكان يسأل عن الدرس السابق قصد الوقوف على مدى اهتمام الطلبة بالمذاكرة والمراجعة، وكان فيه نوع من الشدة في هذه الأمور.

وعامَّة ما كان يعقده الشيخ من دروس لطلبة العلم كان في مادتي الفقه والعقيدة، وله منهجية فيهما، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ حريصا على بسط المادة العلمية بدليلها، ففي الفقه مثلا لم يكن يتعصَّب لمذهب مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الفتوى أو التدريس، مع أنَّه كان مالكيَّ المنشأ، بل كان ميَّالا للدليل نزَّاعا إليه.

يقول الشَّيخ عبد الغني عوسات:... كانت البدايَةُ سنةَ ألف وتسعمائة وأربع وسبعين (1974)، حيث كان لنا والحمد لله دِراسات وجَلَسات استمرَّت واستغْرَقت سَنتَين مع الشَّيخ عمر العَرْباوي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «بداية المجتهد ونهايةُ المقتصد» لابن رُشْد المالكي، ثم مع تعرُّفي عليه ومَعْرفَتي به، أَلفيتُه رجلا يُحبُّ الأدلَّة ويَنبُذُ التَعَصُّب المذهبي، ويَسيرُ مع الدَّليل ويَثْبُتُ عليه ويَصيرُ إليه ويَتوَقَّفُ عِنده، ذِكرا وأثَرًا وحُجَّةً، وقُوَّةً.. ؛ كلُّ ذلك جعلني أرْتَبط به وأقْرَأُ عليه بعضَ الكُتب كـ«الاعْتِصام» وفُصولا كَثيرة من «الموافَقات»؛ كلاهما للشَّاطِبي، وكتاب «تفسير الأحكام» للسايس[31].

وقد اشتهر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بتدريسه لكتاب «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد المالكي، ثمَّ اتَّخذ مؤلَّفًا له خاص كان يُملي درسه منه.

وكذلك كان الشأن في درس التوحيد، فقد سلك الشيخ فيه نفس المنهج المتبع في تدريسه لمادة الفقه، من اتِّباع للدليل ومن الوقوف عند أقوال العلماء ممن لهم القدم الراسخة في هذا العلم الجليل.

خطبه الجمعية:

كان الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بحقٍّ خطيبًا بليغًا وواعظًا مؤثِّرًا، يقول الشيخ فريد عزوق واصفا خطب الشيخ: خطبة الجمعة تختلف عن دروسه ومحاضراته، فخُطب الجمعة ليست طويلة، وثانيا كانت فيها هيبة، فالشيخ يغيِّرُ نبرة صوته، يرفع صوته على مرض فيه وضعف، وكان يتقصَّد فيها حسن البيان، كنت أستمع لخطبه وأرى فيها هيبة وصوتا جهوريا، وحسنا في السبك والبيان والصياغة، بحيث يتقصد الشيخ أن تكون الخطبة مسبوكة بطريقة بلاغية رائعة، من السهل الممتنع، يفهمها العوام، ويعجب بها أصحاب البيان، ولا عجب فهو أستاذ اللغة، لذلك كان له من القدرة البلاغية والبيانية على صياغة خطبه،... وخطبته كانت مليئة بالأدلة من القرآن والسُّنة.

مؤلفات الشيخ عمر العرباوي وآثاره:

خلَّف الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تراثًا طيبًا بين: مؤلف مطبوع، ومسود يدرس منه، ومقالات منشورة في الصحف والمجلات.

أمَّا مؤلفاته المطبوعة فهي من أنفس ما أُلف وطبع في مجال الدعوة آنذاك، وأقصد بذلك كتابي الشيخ:

ـ «الاعتصام بالإسلام».

ـ كتاب التوحيد المسمى: «التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد».

«كتاب الاعتصام بالإسلام»: والذي طبع طبعته الأولى والوحيدة سنة 1402هـ/1982م، هذا الكتاب كما يقول عنه الشيخ في تصديره له: يشتمل هذا الكتاب على جزأين: الجزء الأول يتكلم على التدهور الذي أصاب المسلمين من بعد سقوط الخلافة، منذ ذلك الوقت لم ينعم المسلمون بالوحدة التي أمرهم بها القرآن، والتي عليها أسلافهم الميامين ... والجزء الثاني يتكلم عن الثورة الجزائرية حين خاضت الحرب باسم الإسلام، فكان لها نصر مؤزر رغم أنَّها لا تملك من السلاح إلا الشيء التافه، ولكنَّ الجزائريين تسلحوا في هذه الحرب بسلاح قوي لا يُقهر ولا يُغلب ألا وهو سلاح الإيمان بالله عز وجل، والوحدة المتينة[32].

وقد تزامن طبع هذا الكتاب مع ظهور كتاب آخر سبقه هو كتاب (المزدكية هو أصل الاشتراكية) للعلامة الفاضل الشيخ عبد اللَّطيف سلطاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وكأن كتاب (الاعتصام بالإسلام)

(30) كما أفادني به الشيخ أبو عبد الرحمن محمود لقدر، وهذا أثناء دراستهم على الشيخ في مسجد (جنان مبروك)، وكذلك نفس الطريقة التي بقي ينتهجها الشيخ في مسجد الشافعي كما ذكر لي الشيخ فريد عزوق.

(31) نبذة عن حياة الشيخ عبد الغني عوسات نقلا من موقعه حفظه الله: http://www.aoussat.com..

(32) الاعتصام بالإسلام ص: 4

جاء مكملا لكتاب (المزدكية) إذ كان في أحدهما هدم للأفكار الدَّخيلة والثاني تذكير وتبيان للحق الذي يجب التزام غرزه، وهو الإسلام.

كتاب التَّوحيد المسمَّى: «التَّخلِّي عن التَّقليد والتَّحلِّي بالأصل المفيد»: والذي طبع طبعته الأولى والوحيدة كذلك في رمضان سنة 1404هـ/لـ جوان 1984م، قرابة ستة أشهر قبل وفاته رحمه الله، وهو عبارة عن مجموعة دروس في التوحيد والعقيدة كان يُمليها الشيخ رحمه الله على طلبته.

يقول الشيخ العرباوي رحمه الله في تعريفه بكتابه هذا: «وإني أقدم تأليفا متواضعا في العقائد الإسلامية السلفية إلى الشباب المسلم ليتسلح بالتوحيد الخالص والإيمان العميق لعله يجد فيه ما يشفي غليله؛ لأنه مدعم بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة وأقوال الأئمة المجتهدين أمثال: ابن تيمية، ابن قيّم الجوزية، عبد الحميد بن باديس، والغزالي! وغيرهم كثيرون رضوان الله عليهم»[33].

وقد عرض الشيخ عمر العرباوي الكتاب على المجلس الإسلامي الأعلى للنظر فيه وقد أجازوه على طبع الكتاب. يقول الشيخ أحمد حماني رحمه الله: «... ولمّا كان هذا الكتاب قد سلم من عثرات وقع فيها بعض مَن تكلموا في هذا الموضوع من قبل، كالذين أنكروا بعض الصفات فكانوا معطلين، أو كالذين ضربوا لله الأمثال فكانوا مجسمين مشبهين، فإن المجلس لا يرى مانعا من طبع هذا الكتاب وترويجه، ورجاء النفع به لسلامته من هذه العثرات المردية والمذاهب الزائفة.

وهذا لا يمنعنا من أن نلاحظ لمؤلفه الفاضل ملاحظات تنفع المُطّلع على الكتاب ولا تضر بسمعة مؤلفه...»[34].

وكان للشيخ العرباوي كذلك كراستان إحداهما في التفسير والأخرى في الفقه:

- كراسة في التفسير: والتي كتبها في سجن (البرواقية) إبان الثورة.

- كراسة في الفقه: وهي التي كان يدرِّسُها لطلبته[35].

وله كذلك عدة محاضرات مسجلة[36]، ومقالات في جريدة «البصائر» ومجلة التَّهذيب الإسلامي[37].

نماذج من غُرر أقواله ودُرَر كتاباته:

لقد بيّن رحمه الله تأثير العقيدة الإسلامية في السَّلف الصَّالح وأنهم جسَّدوها في واقع مَعاش يقول رحمه الله: لا نعلم أمَّة أثرت فيها العقيدة الدينية كسلف هذه الأمة فبمجرّد اعتناق أحدهم لها تهيمن عليه في الحال، وسرعان ما تراه ينبذ جميع ما كان له من اعتقادات فاسدة وأخلاق سيئة، وتحلّ محلّها روح جيّاشة بالمعاني السامية، والحكم البالغة، والبطولة النادرة، فتراه، إذا تكلّم يصيب الصواب ويحسم النزاع في ألفاظ وجيزة، وإذا قاتل فتجد الأبطال يفرُّون من أمامه، وإذا حكم يصير مضرب الأمثال في العدل وتحرّي الحقائق.

وقد تجرَّدوا من كلِّ شيء لهذه العقيدة، واشتغلوا بنشرها بين النَّاس واستقرارها في النفوس، واستعذبوا كل ضحية جسيمة في سبيلها، حتّى زلزلوا عروش الطغاة والجبابرة وحطّموا الوثنية، وغيّروا مجرى العالم، وبدّلوا موقفه، وقضوا على الظلم والفساد، وكوّنوا من جميع العناصر أمّة شعارها النّاس - مهما كانوا - من أصل واحد[38].

ولقد بين كغيره من علماء الجزائر سبب تخلف الأمة عن الركب ورجوعها القهقرى وأن ما آلوا إليه كان جرّاء نبذهم وتركهم لتعاليم الإسلام: «ولمّا صار المسلمون لا يعملون بأوامر الإسلام الذي هو دستورهم الطبيعي وقعوا في مجاهل مظلمة وطريق وعرة وعقبة كَأْدَاء، لم يستطيعوا اجتيازها الآن، ومشاكل العالم الإسلامي الحالية سواء مع الاستعمار أو مع بعضه لبعض لا يحسمها إلاّ الإسلام، فإذا لم يحافظ على وحدتها من التصدّع والإهمال، فإنها ترجع إلى ما كانت عليه قبل الإسلام من عبادة الأهواء والشهوات والتفرق، فالإسلام هو الذي حرس هذه الأمم من أعدائها، أيام كانت متمسّكة به، وحافظ على كيانها ومقوّماتها من الانهيار، ولم تر عزّها وسيادتها فيه فحسب، بل وجدت نفسها أقوى أمّة في العالم، مدفوعة بتعاليمه السماوية،

(33) «التخلي عن التقليد والتحلي بالأصل المفيد» (ص13).

(34) انظر «فتاوى الشيخ أحمد حمّاني رحمه الله» (1/591-599).

(35) وهاتان الكراستان مفقودتان، للأسف.

(36) وللأسف لم أظفر إلا باثنتين منها فقط؛ والله المستعان.

(37) وقد قمت بجمع كل ما طالته يدي منها، وتنضيدها وضبطها. يسّر الله نشرها.

(38) البصائر، ع:277، ذي القعدة 1373هـ/ جويلية 1954م.

نحو المثل العليا والكمال الإنساني، حتّى قادت الأمم إلى ما تطمح إليه، من أخوة عادلة، وتعاون وثيق، ومساواة تامّة، لم تتحقّق بغير الإسلام، لو أنّ المسلمين حافظوا على أوامر الإسلام واتّبعوا منهجه، أكان الاستعمار يغزوهم في عقر ديارهم، ويسخّرهم لخدمته ومصالحه، وتنفّذ فيهم وساوسه وحيله الشيطانية، وتراهم يصبرون على هوانه ومذلّته طوال هذه الحقب بدون أن يخلعوا عن أنفسهم الأغلال والقيود، ولو أنّ المجتمع كان مجتمعا إسلاميا أكانت المشاكل الداخلية تقف حاجزا بينه وبين ما يصبو إليه، فلا يستطيع تحطيمها والقضاء عليها قضاء تاما؟ ولو كانت جامعة الدول العربية متمسّكة بالإسلام أكانت إسرائيل[39] تغزوها وتقطع جزءً نفيسا من كيانها، وتظهرها أمام العالم أجمع بمظاهر الضعف والخور!) [40] .

وفي بيان ما آلت إليه أوضاع الأمة من الانتساب إلى الإسلام في الظاهر وتقليد الغرب الكافر في الواقع يقول رحمه الله: (يقول المسلمون اليوم فينا غيرة على الإسلام، المساجد بحمد الله قائمة بيننا والقرآن يتلى وأحاديث الدّين تذاع، والتّصريحات الرّسمية بمحاسن الإسلام موجودة، والدساتير تنص على أنّ الإسلام هو الدّين الرسمي للدولة هذه المظاهر موجودة كلّها، ولكنّ الإسلام ليس مجرّد مظاهر وكلام، إنّه عقيدة ونظام وعمل وتشريع وآداب، فما مدى تفاعل حياتنا معه، وأين واقعنا الحاضر منه؟ فهناك جمهور كبير من الأمّة الإسلامية بهرتهم مدنية الغرب، فنسوا العمل بالإسلام وأصبحوا يشكّون في عدالته، فصاروا يعيشون بذوات غربية فلا يسمعون إلاّ جرسها، ولا يتعبدون إلاّ بفنونها ولا يؤمنون إلاّ بحضارتها وقانونها فلم يتصوّروا أبدا أنّ هناك أنظمة إسلامية وقوانين وتشريعات قرآنية) [41].

وقال أيضًا رحمه الله في كتاب «الاعتصام بالإسلام»: (إذا تركت الشعوب الإسلامية الدين بعيدا عن حياتها كما هو الآن في أوطان المسلمين، ولم تجعله أساسا لشؤونها فإنها لن تستطيع أن تقوم بنهضة قوية، وعندئذ لا يقدر أي مبدأ من المبادئ المستوردة أن يوحّد بينها، فتنتابها عوامل الضعف والتخاذل والتفرقة، وهذا ما وقع في الماضي، وكان السبب في سقوطها فريسة بين أيدي أعدائها ولا زال هذا التفرق إلى الآن بكل أسف) [42].

وجاءت اللحظة الفارقة...

بعد حياة قاربت الثمانين عاما ملؤها النصح والتعليم والإرشاد والتدريس، آن لهذه السفينة أن ترسو، ولهذا الوميض أن يخبو، وأن تُسلّم الروح إلى خالقها و باريها، بعد ابتلاء مرير مع أدواء وأوجاع كان يجدها الشيخ عمر العرباوي رحمه الله في جسمه، لتفيض روحه في صبيحة يوم الأحد التاسع من ربيع الأول سنة 1405هـ/ الموافق لـ 2 ديسمبر 1984م.

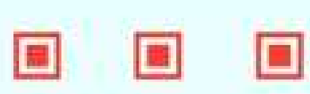
وفي جنازته خرجت مدينة (الحراش) زرافات ووُحدانا لتشييع فقيدها بل وفقيد الأمة الإسلامية، في جنازة مشهودة حضرها الآلاف،انطلاقا من بيته في المنظر الجميل بالحراش وسيرا على الأقدام حتى مقبرة (سيدي ارزين) على الطريق الرابط بين (الحراش وبراقي) [43].

وقد رثاه أحد محبيه بأبيات مطلعها:

بماذا أبكيك وأنت الدَّمع والبَصر

بماذا أرثيك وأنت اللِّسان والعبَرِ

فرحم الله شيخنا الجليل، سائلين الله عز وجلّ أن يعلي ذكره، ويرفع قدره عنده سبحانه في جنات عدن، وأن يحشره ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ آمين.





(39) المقصود به دولة اليهود، وإلَّا فإسرائيل هو يعقوب عليه السَّلام.

(40) مقال بعنوان: (مشاكل العالم الإسلامي لا يحلّها إلاّ الإسلام)، نشر في البصائر، ع: 299، الصادر في: جمادى الأولى 1374هـ/ ديسمبر 1954م.

(41) مقال بعنوان: (الإسلام دين تام)، نشر في مجلة التهذيب الإسلامي، العدد: 08، الصادر في ذي الحجة 1385هـ/ مارس 1966م..

(42) كتاب الاعتصام بالإسلام ص:10..

(43) وقد أوصى رحمه الله بدفنه في هذه المقبرة، وسبب ذلك أنّه حضر جنازة أحد معارفه، ورأى من تواضع المقبرة؛ إذ ليس فيها تشييد للقبور، وكذلك أوصى بأن لا يوضع شيء على قبره.



فتوى في الإمامة

للشيخ عبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ

(1285هـ)

اعتنى به

حسن بوقليل

ليسانس في العلوم الشَّرعيَّة. الجزائر

بين أيدينا فتوى للشَّيخ عبد الرَّحمن ابن حسن آل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ، سئل فيها عن مكث الإمام بعد صلاتي المغرب والفجر مستقبل القبلة يأتي بالتَّهليلات العشر.

☐ ترجمة الشيخ[1]:

أمَّـا المفتي فهو العلامة المشهـور بالدَّعوة والإصلاح، الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن حفيد شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهاب رحمهم الله.

ولد سنـة ثلاث وتسعين ومائة وألف بالدّرعية، فنشأ بها وحفظ القرآن في التاسعة من عمره، وقرأ على جده محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ، وحضر مجالسه العلمية.

☐ مشايخه:

وقـرأ على حمد بن ناصر بن معمر، وعبـد الله بن فاضل، وعلى عمه عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب، وعلى غيرهم.

شـارك في عدة حروب؛ كوقعة وداي الصَّفراء بالقرب مـن المدينة، لقتال طوسون ابن محمد بن علي باشا.

وبعـد سقـوط الدِّرعية على يد إبراهيم بـن محمَّد علي باشا انتقـل إلى مصر مع عائلتـه سنـة 1233هـ، وبقي بها ثمان سنوات، قرأ فيها علـى عدة علماء، ولقي مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي وقرأ عليه، وأجازه[2].

وبعد رجوع الدِّرعية لأهل نجد على يد الإمام تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، قَدِمَها سنة 1240هـ، وأخذ ينشر العلم، وانتهت إليه رئاسة العلم في زمنه بنجد.

☐ تلاميذه:

درَّس علم التَّوحيد والفقه، وولي قضاء الدِّرعية.

تخـرَّج بـه خلائق لا يحصون، منهـم: ابنه الشيخ عبد اللطيـف، وعبد الملك وعبد الرحمـن ابنا حسين بن محمـد بن عبد الوهاب، وحمد بن عتيـق، وغيرهم، فهو شيخ مشايخ أهل نجد في زمانه بلا نزاع.

☐ مؤلفاته:

لـه «القول الفصـل النَّفيس في الـرَّدِّ على داود بـن جرجيس»، و«المقامـات» رَدَّ به علـى عثمان بن منصور، و«المحجَّة» رَدَّ به على صاحـب «السحب الوابلة»، و«بيان كلمة التَّوحيـد» رد به على عبـد الحميد الكشميري، و«فتح المجيد في شـرح كتاب التوحيد»، و«قـرة عيـون الموحدين في تحقيق دعـوة الأنبياء والمرسلين»، ولـه رسائل كثيرة طبعت ضمن رسائل أئمة الدَّعوة، وجمعت فتاواه في مصنف.

☐ وفاته:

توفي عشيَّة يوم السَّبت حادي عشر ذي القعدة سنة خمس وثمانين ومائتين وألف في بلدة الرياض، وصلِّي عليه بجامع الرِّياض، ودفن في مقبرة العود.

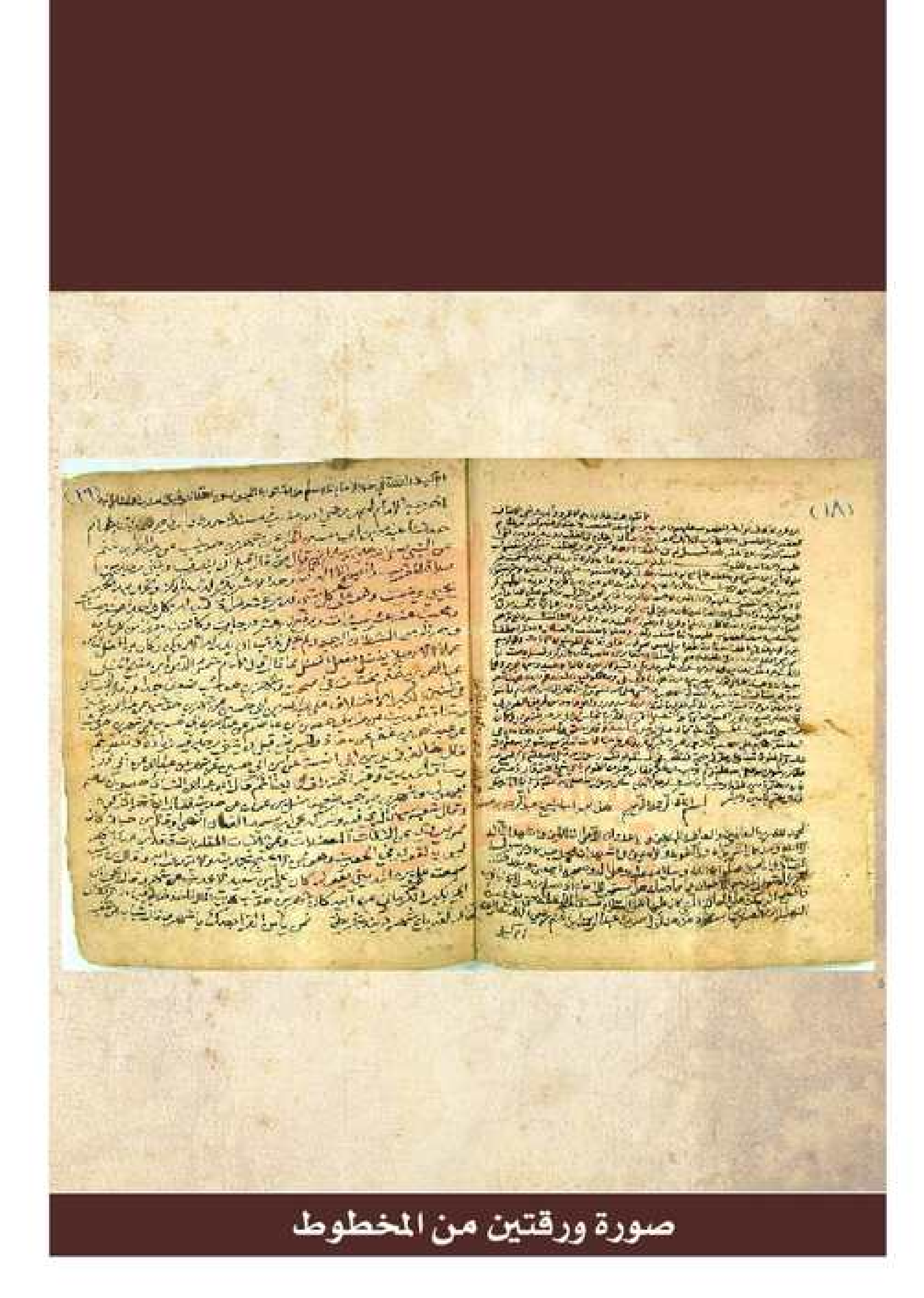
له من الأولاد: محمد، وعبد اللطيف، وإسحاق، وعبد الله، وإسماعيل.

☐ ☐ ☐

---

(1) انظر: «مشاهير علماء نجد» (ص 78)، و«علماء نجد خلال ثمانية قرون» (180/1)، و«الدُّرر السَّنية» (404/16).

(2) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله -: «ولقيت بمصر مفتي الجزائر محمد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري، فوجدته حسن العقيدة، طويل الباع في العلوم الشرعية» «مشاهير علماء نجد» (ص 90). وهو المعروف بـ(ابن العنابي) المتوفى سنة 1267هـ، وقد ترجم له الدكتور أبو القاسم سعد الله ترجمة، طبعت بالمكتب الإسلامي.


صورة ورقتين من المخطوط

❑ **موضوع الفتوى:**

تتحدَّث الفتوى عن حكم مكوث الإمام بعد صلاتي الفجر والمغرب مستقبل القبلة ليقول: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» عشر مرَّات، ثم ذكر الشَّيخ رحمه الله بعض ما يقال دبر الصلوات نقلا من زاد المعاد لابن القيم رحمه الله.

❑ **صحة نسبتها لصاحبها:**

ذكر هذه الفتوى الشَّيخ عبد الرَّحمن بن محمَّد بن قاسم رحمه الله في «الدُّرر السَّنيَّة» في موضعين:

- الأوَّل: (4/301) قال: «قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن في أثناء جواب له»، ثمَّ ذكر كلام ابن القيِّم رحمه الله في «الزاد» وسيأتي.

- الثَّاني: (4/415) قال: «سئل الشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن رحمه الله عن مُكث الإمام بعد السَّلام مستقبل القبلة، حتَّى يفرغ من التَّهليلات العشر، كما يستفاد من حديث ابن غنم؟» فذكر شيئا من جوابه.

وصنيع ابن قاسم رحمه الله يدل على أمرين:

- إما أنَّ الفتوى تعددت؛ لقول الشيخ في بدايتها: «فقد تكرَّر السُّؤال من بعض الإخوان عمَّا حاصله»، وإذا تكرَّر السؤال يتكرر الجواب غالبًا.

- وإمَّا أنَّ الشيخ ابن قاسم رحمه الله نقل الشاهد من الفتوى، حيث كان يتكلم عن التهليلات العشر، بدليل قوله: «في أثناء جوابه»[3].

وكلا الأمرين يدلُّ على صحَّة نسبتها للشيخ عبد الرحمن ابن حسن آل الشيخ رحمه الله، زد عليه أنَّ النُّسخة من مخطوطات الدِّرعية (منطقة الشيخ)، وقد أثبت النَّاسخُ اسمَ الشَّيخ في أوَّلها. والله أعلم.

❑ **وصف النسخة:**

النسخة التي بين أيدينا مصورة عن مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، وتقع ضمن مجموع برقم (4352) يحوي رسالتين: «تفسير الفاتحة» لابن رجب[4]، ورسالتنا هذه، ويليها «خاتمة في الاعتصام بالسنة والتحذير من الابتداع»، وفي آخره كتب النَّاسخ: بلغ مقابلة على أصلها ولله الحمد والمنة[5].

تبدأ الفتوى من (ص18) إلى (ص26)، ومقاسها (16.5/22.5سم)، ومسطرتها (25 سطرًا).

وخطُّها واضح، كتبت في القرن الثالث عشر، وفيها بعض الأخطاء؛ فما كان نحويًّا صحَّحتُه ولم أشر إلى ذلك لكثرته، وما كان من سقط جعلته بين معقوفتين.

وميَّزت كلَّ صفحة عن أختها بوضع خطٍّ مائل [/]، حتَّى يسهل الرجوع إلى الأصل - لمن أراده -، والله الموفق، والهادي إلى سواء السبيل.

❑ ❑ ❑

(3) وقد نبَّه جامع «الدرر» في مقدمته (1/24) على هذا فقال: «وأمَّا الجزء الرَّابع، ...فهي على حسب ترتيب فقهائنا - رحمهم الله - في التَّبويب والمسائل، وإذا كان في المسألة جوابان فأكثر؛ ذكر السُّؤال أو **بعضه أو ملخصه، إن لم يحتج إليه كله**».

(4) وقد حققها سامي بن محمد جاد الله.

(5) انظر قصة العثور على هذا المجموع، ووصفه في مقال الأخ إبراهيم عبد العزيز اليحيى (مفهرس بالمكتبة)، نشر في جريدة الرياض (الجمعة 1 ربيع الأول 1432هـ - 4 فبراير 2011م - العدد 15565).

◉ النَّصُّ المحقَّق:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا جوابٌ للشَّيخ عبد الرَّحمن بن حسن بن محمَّد ابن عبد الوهَّاب - رحمهم الله تعالى -.

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، ولا عدوان إلاَّ على الظَّالمين، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، ولا كفؤ له، ولا معين، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله الصَّادق الأمين، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد تكرَّر السُّؤال من بعض الإخوان عمَّا حاصله:

هل يستحبُّ للإمام إذا سلَّم من صلاة المغرب والصُّبح أن يمكث على الحالة الَّتي كان عليها قبل السَّلام مستقبل القبلة حتَّى يفرغ من التَّهليلات العشر، كما يستفاد من مدلول حديث عبد الرَّحمن ابن غنم رضي الله عنه؟ أم كيف/ السُّنَّة في حقِّ الإمام إذا سلَّم من المكتوبة؟

❍ ❍ ❍

❍ **الجواب - وبالله التوفيق -:**

الحديث المشار إليه أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في «مسنده»[6]: حدَّثنا رَوح، حدَّثنا همَّام، حدَّثنا عبد الله بن أبي حسين المكِّي، عن شهر بن حَوشَب، عن عبد الرَّحمن بن غَنْم، عن النَّبي ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ وَيَثْنِي [رِجْلَه]**[7] **مِنْ صَلاَةِ المَغْرِبِ وَالصُّبْحِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَ[لَهُ] الحَمْدُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرُفِعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ، وَكَانَتْ [لَهُ]**[8] **حِرْزًا مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ، وَحِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَلَمْ يَحِلَّ لِذَنْبٍ أَنْ يُدْرِكَهُ إِلاَّ الشِّرْكُ، وَكَانَ مِنْ أَفْضَلِ النَّاسِ عَمَلاً إِلاَّ رَجُلاً [يَفْضُلُهُ يَقُولُ]**[9] **أَفْضَلَ مِمَّا قَالَ**»[10].

قال الإمام شمس الدِّين ابن مفلح الحنبلي: «عبد الرَّحمن ابن غَنم مختلفٌ في صحبته، وشهر بن حوشب ضعيفٌ جدًّا»[11].

وقال النَّسائي في «السنن الكبرى»: «الاختلاف على عبد الله ابن أبي حُسين، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرَّحمن بن غَنم» وساق الحديث من طريق حُصَين بن عاصم، عن عبد الله ابن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، عن عبد الرَّحمن بن غَنم عن معاذ، وليس فيه «**قَبْلَ أَنْ يَثْنِيَ رِجْلَهُ**» فيه زيادةٌ ونقصٌ.

ثمَّ قال: «خالفه زيد بن أبي أُنَيسة، عن ابن أبي حسين، عن شهر، عن عبد الرَّحمن، عن أبي ذرٍّ» وساق الحديث، وفيه اختلافٌ أيضًا.

ثمَّ قال أبو عبد الرَّحمن النَّسائي: «حصين بن عاصم مجهول، وشهر بن حوشب ضعيف، سئل ابن عون عن حديثه؛ فقال: إنَّ شهرًا [نَزَكوه][12]، و[كان][13] شعبة: سيء الرأي فيه، وتركه يحيى بن سعيد القطَّان»[14] انتهى.

وقال ابن حبَّان: «كان ممَّن يروي عن الثِّقات المُعضِلات، وعن الأثبات المقلوبات»[15].

وقال ابن عديٍّ: «شهرٌ ليس بالقويِّ في الحديث، وهو ممَّن لا يحتجُّ بحديثه، ولا يتديَّن به»[16].

وقال ابن شَيبة: «سمعتُ عليَّ بن المديني يقول: كان يحيى ابن سعيد لا يحدِّث عن شهرٍ»[17].

---

(6) رقم (17990).

(7) في الأصل: رجليه.

(8) ليست في رواية أحمد.

(9) في الأصل: يفضُل بفعل.

(10) الحديث ضعَّفه أهل العلم لضعف شهر بن حوشب، واضطرابه في سنده، ومتنه.

أمَّا سنده: فمرَّة يرويه عن ابن غَنم مرسلاً، ومرَّة عنه عن أبي ذرٍّ مرفوعًا، ومرَّة عن معاذ، ومرَّة عن فاطمة رضي الله عنها.

وأمَّا متنه: فمرَّة يذكر الفجر دون المغرب، ومرَّة يذكرهما، ومرَّة يذكر العصر مكان المغرب، ومرَّة يذكر «يُحْيِي وَيُمِيتُ»، ومرَّة لا يذكرها، ومرَّة يزيد قبلها «بِيَدِهِ الخَيْرُ». كما في رواية أحمد الَّتي ساقها الشَّيخ -، ومرَّة لا يذكرها.

قال الشيخ الألباني: «وبالجملة؛ فهذا الاضطراب في إسناده ومتنه لو صدر من ثقة لم تطمئنَّ النَّفس لحديثه، فكيف وهو من شهر الَّذي بالضَّعف اشتهر؟!». «تمامُ المنة» (ص 229).

وقد حسنه الحافظ ابن حجر بشواهده في «نتائج الأفكار» (2/322 - 325).

(11) انظر: «الآداب الشرعية» (2/228).

(12) في الأصل: «تركوه»، والتصويب من «السنن الكبرى»، قال مسلم: «أَخَذَتْهُ أَلسِنَةُ النَّاس تَكَلَّمُوا فيه». «مقدمة الصحيح».

(13) في الأصل: قال!

(14) «السنن الكبرى» (9/54، 55).

(15) «المجروحون» (1/361).

(16) «الكامل» (5/64).

(17) «تهذيب الكمال» (12/583).

وقال يحيى بن أبي بُكير الكرماني عن أبيه: «كان شهر ابن حَوشَب على بيت المال فأخذ خَريطةً[18] فيها دراهمُ، فقال القائل:

لقد باع شهرٌ دينه بخريطة

فمن يأمَن القرَّاءَ بعدَك يا شهرُ»[19].

وقال شَبابة عن شعبة/: «لقد لقيتُ شهرًا فلم أعتدَّ به»[20] انتهى من «نهاية التقريب»[21].

قلت: وقد أكثر الحفَّاظ من الطَّعن فيه، وما ذكرته كاف في بيان حاله، وأنَّه لا يحتجُّ بما انفرد به.

وذكر الخطيب عجيبةً يرويها عن نصر بن حمَّاد قال: «كنَّا قعودًا على باب شعبة نتذاكر، فقلت: حدَّثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عَطاء بن عامر، قال: كنَّا نتناوَب رعاية[22] الإبل على عهد رسول الله ﷺ، فجئت ذات يوم والنَّبيُّ ﷺ [جالسٌ وحوله أصحابه][23] يقول: «**مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ**[24]**، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، فَاسْتَغْفَرَ اللهَ تَعَالَى غَفَرَ [اللهُ] لَهُ**»، فقلت: بخ بخ، فجذَبني رجلٌ من خلفي، فالتفتُّ فإذا هو عمر بن الخطَّاب، فقال: الَّذي قال قبلُ أحسن، قال: «**مَنْ شَهِدَ أَلاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ قِيلَ لَهُ ادْخُلْ [مِنْ]**[25] **أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ**». قال: فخرج إليَّ شعبةُ فلطَمني، ثمَّ دخل، ثمَّ خرج؛ فقال: ما له بعدُ يبكي؟ فقال له عبد الله بن إدريس: إنَّك أسأت إليه! فقال: ألا تنظُر إلى ما يحدِّث عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن عطاء، عن عقبة؟ قلت: مَن حدَّثك؟ قال: حدَّثني عبد الله بن عطاء عن عقبة، قلت: أسمِعَ عبد الله بن عطاء من عقبة؟ قال: فغضب، ومِسعَر بن كِدام حاضرٌ، فقال: أغضبتَ الشَّيخ. فقال مِسعَر: عبد الله بن عطاء [بمكة][26]، فرحلتُ إلى مكَّة لم أُرِد الحجَّ، أريد[27] الحديث؛ فلقيتُ عبدَ الله بن عطاء فسألتُه، فقال: سعد بن إبراهيم حدَّثني، فقال لي مالكُ بن أنس: سعد بن إبراهيم[28] بالمدينة لم يحجَّ [هذا][29] العام، فرحلتُ إلى المدينة فلقيتُ سعدًا، فقال: الحديثُ من عندكم؛ زياد بن مِخراق حدَّثني. [قال][30] شعبة: أيش[31] هذا الحديث؛ بينَما هو كوفيٌّ إذ صار مدنيًّا، إذ رجع إلى البَصرة؟! فقال أبو يحيى: هذا الكلام أو نحوه، فرحلتُ[32] إلى البصرة، فلقيتُ زياد بن مخراق فسألته، فقال: ليس هو من بابَتك، قلت: حدِّثني به، قال: لا [تُريده][33]، قلت: حدِّثني به، قال: حدَّثني شَهرُ بن حَوشَب، عن أبي رَيحانة، عن عقبة. قال شعبة: فلمَّا ذكر شهرًا قلت: [دمِّر][34] على هذا الحديث؛ لو صحَّ لي مثلُ هذا كان أحبَّ لي من أهلي ومالي والنَّاس أجمعين» انتهى[35].

قلت: وحديث عقبة هذا واقع في «صحيح مسلم» من غير هذا الوجه بسند صحيح[36].

ونذكر ما يعارضُ حديثَ عبد الرَّحمن بن غَنم من الأحاديث الثَّابتة بطُرق وروايات صحَّحها الحفَّاظ المأمونون الثِّقات بأسانيدها المتَّصلة بأهل الثَّبات والعدالة، وبها يتبيَّن ما كان رسولُ الله ﷺ يواظب عليه إذا سلَّم من الصَّلاة.

- أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ ليلةً العشاء، وهي الَّتي يدعوها النَّاس العتَمة، ثمَّ انصرف فقال: «**أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟! فَإِنَّ**[37] **رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لاَ يَبْقَى مِمَّنْ/ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ**»[38].

- وأخرج النَّسائي وابن أبي شيبة عن جابر بن يزيد ابن الأسود، عن أبيه أنَّه صلَّى مع رسول الله ﷺ صلاةَ الصُّبح،

(18) وعاء من جلد.
(19) «تهذيب الكمال» (12/583).
(20) «تهذيب الكمال» (12/581).
(21) واسمه «نهاية التَّقريب وتكميل التَّهذيب بالتَّذهيب»، وسمَّاه السَّخاوي «تأميل نهاية التَّقريب»، وتبعه صاحب «هدية العارفين» (2/205). يقول عنه السَّخاوي ـ تلميذ المؤلِّف ـ: «جمع فيه بين «تهذيب الكمال» ومختصرَيه للذَّهبي وشيخنا ـ أي ابن حجر ـ وغيرها، وهو كتابٌ حافلٌ لو ضمَّ إليه ما عند مغلطاي من الزَّوائد في مشايخ الرَّاوي والآخذين عنه». «الضَّوء اللاَّمع» (9/282).
والكتاب مخطوط، وقد طالعه بعضهم في الدِّرعية، والظَّاهر أنَّه فقد بعد تدمير الدِّرعية زمن إبراهيم باشا، كما أفاده الباحث حمد ابن عبد الله العنقري في «المكتبات السعودية الأولى المخطوطة». نقلا عن مقال د. مهند مبيضين نشر في «جريدة الغد» الأردنية بتاريخ (2010/01/17)..
ومؤلِّفه هو تقيُّ الدِّين أبو الفضل محمَّد بن محمَّد ابن فهد الهاشمي المكِّي الشَّافعي، صاحب «لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ»، توفِّي بمكة سنة (871هـ). انظر «الضَّوء اللاَّمع» (9/282).
(22) في الأصل: رعات!
(23) في الأصل: «والنبي ﷺ حول أصحابه»، والتصويب من «الكفاية» (2/465).
(24) في «الكفاية»: «مَسْجِدًا».
(25) زيادة من في «الكفاية».
(26) في الأصل: «المكِّي» والتصويب من «الكفاية».
(27) في «الكفاية»: أردت.
(28) في «الكفاية»: سعد بالمدينة.
(29) ليست في «الكفاية».
(30) زيادة من «الكفاية».
(31) في الأصل: ويش. ومعناها: أيُّ شيءٍ.
(32) في «الكفاية»: فرجعت.
(33) في الأصل «تروه»: والمثبت من نسخة من «الكفاية».
(34) في الأصل: دُس.
(35) «الكفاية» (2/465ـ466)، وفي القصة نصر بن حماد البصري الوراق وهو متروك الحديث.
(36) «صحيح مسلم» (234).
(37) في الأصل: فإنَّه.
(38) رواه البخاري (564)، ومسلم (2537).

فلمَّا صلَّى انحَرف[39]. وترجم له النَّسائي: «الانحراف بعد السَّلام»[40].

فقال ابن الأثير في «شرح المسند»: «الانحراف: المَيلُ والعُدول؛ تقول: انحَرف وتحرَّف أي مالَ وعدَل عن الشَّيء» انتهى[41].

- وأخرج محمَّد بن نصر المروزي عن العرباض بن سارية الفزاري - وكان من البكَّائين - قال: صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الغَداة، فأقبَل علينا بوجهه فوعظَنا موعظةً بليغةً، الحديث[42].

ويأتي هذان الحديثان في صلاة الصُّبح كما ترى، وهما وما قبلهما نصٌّ في أنَّه ﷺ أعقَب سلامَه من الصَّلاة بالانحراف والإقبال على المأمومين.

- ولمسلم وأهل السُّنن عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا سلَّم لم يقعُد إلاَّ مقدارَ ما يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**»[43].

- ولمسلم والأربعة عن ثوبان قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا انصَرف من صلاته استَغفر الله ثلاثًا، وقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**»[44].

- ولأبي داود والتِّرمذي: إذا أرادَ أن ينصَرف من صلاته[45].

- ولابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا سلَّم لم يجلس إلاَّ مقدار ما يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**»[46].

قال علماؤنا الحنابلة - رحمهم الله تعالى -: ويُكرَه مُكثُه - أي الإمام - كثيرًا بعد المكتوبة مستقبلاً القبلة[47].

قال في «شرح الزَّاد»: «ويكره للإمام إطالةُ قعود بعد الصَّلاة مستقبلاً القبلة؛ لقول عائشة رضي الله عنها: كان النَّبيُّ ﷺ إذا سلَّم من صلاته لم يقعُد إلاَّ مقدار ما يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ، وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ**»»[48] الحديث، وقد تقدَّم.

وقال الحافظ ابن حجر: «إن كان للإمام عادةٌ أن يعلِّمهم ويعظَهم؛ فيستحبُّ أن يُقبل عليهم، وإن كان لا يزيد على الذِّكر المأثور فهل يُقبل عليهم جميعًا أو ينفتِل فيجعل يمينَه من قِبل المأمومين، ويسارَه من قِبل القِبلة يدعو، الثَّاني هو الَّذي جزَم به أكثرُ الشَّافعية»[49] انتهى.

وقال البخاري رحمه الله: «بابٌ يستقبل الإمامُ النَّاسَ إذا سلَّم»[50].

- وساق سنده عن سَمُرة بن جندب رضي الله عنه قال: كانَ رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى [صلاةً] أقبل علينا بوجهه[51].

- وساق حديث زيد بن خالد قال: صلَّى لنا رسولُ الله ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحُدَيبية على أثَر سماء كانت من اللَّيلة[52]، فلمَّا انصَرف أقبل على النَّاس، الحديث[53].

- وساق فيه/ حديث أنس قال: أخَّر رسولُ الله ﷺ الصَّلاة ذاتَ ليلة إلى شطر اللَّيل، ثمَّ خرج علينا، فلمَّا صلَّى أقبل [علينا] بوجهه، فقال: «**إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا وَرَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَزَالُوا فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرْتُمُ الصَّلاَةَ**»[54].

قال الحافظ: «والأحاديث الثَّلاثة مطابقةٌ لما ترجم له، وسياق سَمُرة ظاهرٌ أنَّه يواظب على ذلك»[55].

قال الزَّين ابن المنيِّر: «استدبار الإمام المأمومين إنَّما هو بحقِّ الإمامة، فإذا انقضَت الصَّلاة زال السَّبب، فاستِدباره حينئذٍ يوقع الخيلاء والتَّرفُّع على المأمومين»[56] انتهى.

وقال الكُورَاني[57] في «شرح البخاري»: «قوله «إذا صلَّى صلاةً أقبل علينا بوجهه» إنَّما كان ذلك لأمرين:

أحدهما: لا يظنُّ الدَّاخل أنَّه في صلاة.

الثَّاني: يسأله من له مسألةٌ.

(39) رواه النسائي (1334)، وابن أبي شيبة (3093). ويأتي بطوله. وقد صحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (627).

(40) في «الصُّغرى» و«الكبرى»: «الانصراف بعد التَّسليم».

(41) انظر: «الشافي في شرح مسند الشافعي» (198/1).

(42) رواه أحمد (17144)، وأبو داود (4607)، والتِّرمذي (2676)، وابن ماجه (42)، والمروزي في «السُّنة» (70). وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (2735).

(43) رواه مسلم (592)، وأبو داود (1512)، والتِّرمذي (298)، والنَّسائي (1338)، وابن ماجه (924).

(44) رواه مسلم (591)، وأبو داود (1513)، والتِّرمذي (300)، والنَّسائي (1337)، وابن ماجه (928).

(45) رواه أبو داود (1513)، والتِّرمذي (300).

(46) رواه النَّسائي في «الكبرى» (9846)، وابن خزيمة (736)، وابن حبان (2002)، وابن أبي شيبة (3086). وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (4740).

(47) انظر: «المقنع» - مع المبدع - لابن قدامة (101/2)، و«الشرح الكبير» (80/2)، و«الإنصاف» للمرداوي (299/2).

(48) «الرَّوض المربع» للبهوتي (138/1).

(49) «فتح الباري» (335/2، 336).

(50) «الجامع الصَّحيح» (272/1).

(51) برقم (845).

(52) في الأصل: اللَّيل.

(53) برقم (846).

(54) برقم (847).

(55) «فتح الباري» (334/2).

(56) «فتح الباري» (334/2).

(57) هو أحمد بن إسماعيل بن عثمان الشَّهرَزُوري، شهاب الدِّين الكُورَاني، الشَّافعي، ثمَّ الحنفي (893هـ). انظر: «الضَّوء اللاَّمع» (241/1)، و«نظم العقيان» (38/1)، و«الأعلام» (97/1).

وأيضًا استدباره إنَّما يكون للإمامة، فإذا فرغ فالأولى استقبالُ النَّاس لبُعده عن شوب الكبر» انتهى[58].

وقال البخاري أيضًا: «بابُ مُكث الإمام في مصلَّاه بعد السَّلام». قال الحافظ: «أي [و]بعد استقبال القوم، فيُلائم ما تقدَّم»[59]، وذكر في الباب حديث أمِّ سلَمة أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا سلَّم يمكُث في مكانه يسيرًا[60]. قال ابن شهاب: فنُرى[61] - والله أعلم - [لكي] ينفذ من ينصرف من النِّساء.

- وأخرج التِّرمذي وغيره من حديث جابر بن يزيد ابن الأسود، عن أبيه قال: شهدتُ مع النَّبيِّ ﷺ حجَّةً، فصلَّيت معه صلاةَ الصُّبح في مسجد الخَيف، فلمَّا قضى صلاتَه وانحَرف إذ هو برجلَين في آخر القوم لم يُصلِّيا معه، فقال: **«عَلَيَّ بهمَا»**، فجيء بهما ترعد فرائصُهما، فقال: **«مَا مَنَعَكُمَا أنْ تُصَلِّيَا مَعَنَا؟»** فقالا: يا رسولَ الله! إنَّا كنَّا قد صلَّينا في رحالنا. قال: **«لاَ تَفعَلاَ، إذَا صَلَّيْتُمَا في رِحَالكُمَا، ثُمَّ أتَيْتُمَا مَسْجِدَ جَمَاعَة فَصَلِّيَا مَعَهُمَ[62]؛ فَإنَّهَا لَكُمَا نَافلَةٌ»**. قال التِّرمذي: «حديث يزيد ابن الأسود حديث حسن»[63].

- ولمسلم وأبي داود عن البراء بن عازب قال: كنَّا إذا صلَّينا خلفَ رسول الله ﷺ أحبَبنا أن نكون عن[64] يمينه؛ يُقبل علينا بوجهه، فسمعته يقول: **«رَبِّ قِني عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»**[65].

- وأخرج مسلم والنَّسائي عن أنس قال: صلَّى بنا رسولُ الله ﷺ ذات يوم، فلمَّا قضى الصَّلاة أقبل علينا بوجهه، فقال: **«أيُّهَا النَّاسُ! إنِّي إمَامُكُمْ؛ فَلاَ تَسْبِقُوني بالرُّكُوع [ولا بالسجود]**[66]**، وَلاَ بالْقيَام، وَلاَ بالانْصرَاف؛ فَإنِّي أرَاكُمْ أمَامي وَمنْ خَلْفي»**، ثمَّ قال: **«وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّد**[67] **بيَده؛ لَوْ رَأيْتُمْ مَا رَأيْتُ لَضَحكْتُمْ قَليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرًا»** قالوا: وما رأيت يا رسولَ الله؟! قال: **«رَأيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»**[68].

وقال في «فتح الباري»: «ويؤخذ من مجموع الأدلَّة أنَّ للإمام

(58) «الكوثر الجاري على رياض البخاري» (2/467).
(59) «فتح الباري» (2/335).
(60) برقم (849).
(61) بالضَّم كما في «الفتح» (2/336). وفي الأصل: فريًّما!
(62) في الأصل: «معهما».
(63) الترمذي (219)، وفيه: «حسن صحيح».
ورواه أحمد (17474)، وابن خزيمة (1638)، وابن حبان (2395)، والنسائي (858). وهو في «صحيح الجامع» (307).
(64) في الأصل: على.
(65) مسلم (709)، وأبو داود (615).
(66) زيادة من مسلم والنسائي.
(67) في الأصل: «نَفْسي».
(68) رواه مسلم (426)، والنَّسائي (1363).



أحوالاً؛ لأنَّ الصَّلاة إمَّا أن تكون ممَّا يتطوَّع بعدها، أو لا يتطوَّع، الأوَّل اختلفوا فيه هل يتشاغل قبل التَّطوُّع بالذِّكر المأثور ثمَّ يتطوَّع، وهذا الَّذي عليه الأكثر، وعند الحنفيَّة يبدأ بالتَّطوُّع ويترجَّح تقديم الذِّكر المأثور/ لتقييده في الأخبار الصَّحيحة بدبر الصَّلاة، وأمَّا الصَّلاة الَّتي [لا][69] يتطوَّع بعدها فيتشاغل الإمامُ ومن معه بالذِّكر المأثور»[70] انتهى.

- ولأبي جعفر الطَّحاوي في «مشكل السُّنن والآثار» عن مسروق قال: كان أبو بكر يسلِّم عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ ينفَتل ساعةً كأنَّه على الرَّضْف[71].

- ولابن أبي شيبة عن طارق بن شهاب أنَّ عليًّا لمَّا انصرف استقبَل القوم بوجهه[72].

- وله عن أبي الأحوَص قال: كان عبدُ الله إذا قضَى الصَّلاة انفتَل سريعًا؛ فإمَّا أن يقوم، وإمَّا أن ينحَرف[73].

- وله عن الأعمش، عن إبراهيم أنَّه كان إذا سلَّم انحَرف، واستقبَل القوم[74].

- وقال هُشيم، عن مغيرة: كان إبراهيم إذا سلَّم أقبَل علينا بوجهه وهو يقول: لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له[75].

فهذه كتائب من صحيح السُّنَّة والآثار ليس لأحد معها تصرُّفٌ ولا اختيارٌ.

وقال البخاري رَحِمَهُ الله أيضًا: «باب الانفِتال والانصِراف عن

(69) سقطت من الأصل
(70) «فتح الباري» (2/336).
(71) هو في «شرح معاني الآثار» (1615)، ورواه عبد الرَّزَّاق (3214).
و(الرَّضف): الحجارة المحماة على النَّار، واحدتها رَضفَة. «النِّهاية».
(72) «مصنف ابن أبي شيبة» (3094).
(73) «مصنف ابن أبي شيبة» (3080).
(74) «مصنف ابن أبي شيبة» (3092).
(75) «مصنف ابن أبي شيبة» (3101).



اليمين والشِّمال»، وكان أنسٌ ينفَتِل عن يمينه وعن يساره، ويعيب على من يتوخَّى - أو من يَعمد - الانفتالَ عن يمينه.

قـال الحافـظ ابـن حجر: «قـال الزَّين بـن المنـيِّر: جمع في التَّرجمـة بـين الانفتال والانصراف للإشـارة إلى أنَّه لا فرق [في الحكم] بين الماكـث في مصلَّاه إذا انفَتـل [لاستقبال] المأمومين، و[بين] المتوجِّه لحاجته إذا انصَرف إليها»[76] انتهى.

فهذا ما ثبت بصحيح السُّنَّة، وعملَ به السَّلف من بعدهم من الأئمَّـة، ففيما ثبت غناء عمَّا لم يثبت، وما أحسن ما قاله الإمام الشَّافعـي []{77} رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أنَّ من استبانَت له سنَّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدَعها لقول أحد»[78] انتهى.

قلـت: وإذا كانت الهمم والدَّواعي قد توافَرت على نقل كلِّ ما فعلـه رسولُ الله ﷺ ولو مرَّةً واحـدةً؛ كما في «صحيح البخاري» عـن عقبـة: صلَّيت وراء رسـول الله ﷺ صلاة العصـر، ثمَّ قام مسرعًـا فتخطَّـى رقـاب [النَّاس] إلى بعض حُجَـر نسائِه ففزِع النَّاسُ من سُرعته، الحديث[79]. انتهى.

فلمَّـا لم يُنقَـل عن رسـول الله ﷺ أنَّه كان يهلِّـل في المغرب والصُّبـح إذا سلَّـم، وقبل أن ينصَرف عن القبلـة دلَّ على أنَّه لم يكـن من هديه، وأيضًا فـإذا لم يُنقَل عن السَّلف أنَّهم فعلوا ذلك - مـع قوَّة الدَّاعـي إلى الخير -؛ كان دليلاً علـى أنَّه لم يكن شرعًا عندهم.

وقـال أيضًا: حديث عبد الرَّحمن بن غَنم ليس ظاهرَ الدِّلالة لمـا ذهب إليه هؤلاء؛ فإنَّ قوله قبـل أن ينصَرف يحتمل أنَّما أراد بـه القيام؛ فإنَّـه ورد في الأحاديث يرادُ به السَّلام، وتارةً يراد به القيام/ كما تقدَّم في حديث أمِّ سلَمة وغيره.

وقـد أشـار إلى هـذا في «النِّهاية» فقال: «ثـانٍ رجلَه قبل أن ينهَـض»، لكـن ذكر بعـده في قوله: «أن يثنـي رجلَه» أراد قبـل أن [يصـرف][80] رجلـه عن الحالـة الَّتي هـي عليها في التَّشهُّد»[81] انتهى.

فتأويله «يَثْنِي رِجْلَهُ» بـ(ينصرف) بعيدٌ؛ فإنَّ القاعد لا يزال ثـانٍ رجلَه حتَّـى يمدَّهما، أو يقوم، وأمَّا مريـد القيام فإنَّه يقال: يَثني رجلَه للقيام، يقال للقائم يثني رجلَه للقُعود، وهذا لا يحتاج إلى تأويـل يصرف اللَّفـظ عن ظاهره، ولا يخـرج [إلى ذلك][82] أظهر في المعنى، وأقرب إلى مراد المتكلِّم.

فالمتَّبعون [لصريح الأخبار][83]، و[مشهور][84] الآثار أسعَد من هؤلاء بهذا الحديث، وإن كان لا يحتجُّ أهلُ العلم بمثله، فهؤلاء لو كان معهـم خبرٌ صحيحٌ؛ إمَّا حسنٌ، وإمَّا صحيحٌ لكان من المتعيَّن علـى كلِّ فقيـه متديِّن يعرف السُّنَّة في هذا البـاب أن يحمل هذا الحديـثَ على أنَّه عامٌّ مخصوصٌ بغير الإمام لتجتَمع الأحاديثُ، ويحصـل العمـل بجميعهـا كما تقـرَّر عنـد المحدِّثـين والفقهاء والأصوليِّـين؛ فإنَّ المأموم والمنفـرد إذا أتيا بالذِّكر المشروع عقب السَّلام حالَ استقبالهما القبلة فقد عملا بالسُّنَّة في حقِّهما، كما هو ظاهر الأحاديث الصَّحيحة، كحديث عُقبة - وتقدَّم -، وسنذكُر مـن الأحاديث الواردة فيما يقال من الأذكار بعد الصَّلاة ما يدلُّ على هذا.

قـال في «زاد المعـاد في هدي خـير العباد»: «فصـل فيما كان رسولُ الله ﷺ يقولُ بعد انصرافه من الصَّلاة، وجلوسه بعدها، وسُرعـة انفتالـه منهـا، وما شرعـه لأمَّته مـن الأذكار والقراءة بعدها:

كان إذا سلَّم استغفر ثلاثًا، وقال: «اللَّهمَّ أنتَ السَّلام، ومنك السَّلام، تبارَكت يا ذا الجَلال والإكرام»، ولم يمكُث مستقبل القبلة إلَّا بمقـدار ما يقول ذلـك[85]، بل يُسرع الانفتـال إلى المأمومين، وكان ينفَتـل عن يمينه وعن يساره، قال ابن مسعود: رأيتُ رسولَ

(76) «فتح الباري» (2/338).

(77) في الأصل: كلمة لم تظهر جيِّدًا، لعلَّها (الهمام)!

(78) ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» (4/40)، وفي كتاب الأم للشافعي (7/275) كلمة قريبة منها.

(79) رواه البخاري (851).

(80) في الأصل: «ينصرف رجله».

(81) «النِّهاية في غريب الحديث» (1/226).

(82) لم تظهر لي الكلمة.

(83) في الأصل: بفرع الأبصار. والمثبت من «الدُّرر السَّنيَّة» (4/416).

(84) في الأصل: شهود. والمثبت من «الدُّرر السَّنيَّة» (4/416).

(85) سبق تخريجه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

الله ﷺ كثيرًا ما ينصَرف عن يساره، وقال أنسٌ: أكثر ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ينصَرف عن يمينه. والأوَّل في «الصَّحيحين»[86]، والثَّاني في «صحيح مسلم»[87].

وقال عبد الله بن [عمرو][88]: رأيتُ رسولَ الله ﷺ ينفتل عن يمينه وعن يساره في الصَّلاة[89]، ثمَّ كان ينفَتل على المأمومين بوجهه، ولا يخصُّ ناحيةً منهم دون ناحية، وكان إذا صلَّى الفجرَ جلس في مصلَّاه حتَّى تطلُع الشَّمس[90]، وكان يقول في دبُر كلِّ صلاة مكتوبة: **«لا إلهَ إلاَّ الله، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، اللَّهُمَّ لا مَانعَ لمَا أعْطَيْتَ، وَلا مُعْطيَ لمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ منْكَ الْجَدُّ»**[91]، وكان يقول: **«لا إلهَ إلاَّ الله، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ/، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله، لا إلهَ إلاَّ الله، وَلا نَعْبُدُ إلاَّ إيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَنُ، لا إلَهَ إلاَّ الله، مُخْلصينَ لَهُ الدِّينَ، وَلَوْ كَرهَ الكَافرُونَ»**[92].

وذكر أبو داود عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ إذا سلَّم من الصَّلاة قال: **«اللَّهُمَّ اغْفرْ لي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أخَّرْتُ، وَمَا أسْرَرْتُ وَمَا أعْلَنْتُ، وَمَا أسْرَفْتُ، وَمَا أنْتَ أعْلَمُ به منِّي، أنْتَ المُقَدِّمُ وَأنْتَ المُؤَخِّرُ لا إلَهَ إلاَّ أنْتَ»**، هذا قطعةٌ من حديث عليٍّ الطَّويل الَّذي رواه مسلم في استفتاحه ﷺ، وما كان يقول في ركوعه وسجوده[93].

وندب أمَّته أن يقولوا في دبُر كلِّ صلاة: سبحان الله ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، والله أكبر ثلاثًا وثلاثين، وتمام المائة لا إله إلاَّ الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ[94].

وفي صفة أخرى: عشرُ تسبيحاتٍ، وعشرُ تحميداتٍ، وعشرُ تكبيراتٍ[95].

ـ وفي «السُّنن» حديث أبي ذر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«مَنْ قَالَ في دُبُر صَلاَة الْفَجْر وَهُوَ ثَانٍ رجْلَيْه قَبْلَ أنْ يَتَكَلَّمَ: لا إلَهَ إلاَّ الله، وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، [يُحْيي وَيُميتُ]، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ عَشْرَ مَرَّات؛ كُتبَ لَهُ عَشْرُ حَسَنَات، وَمُحيَ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَات، وَرُفعَ لَهُ عَشْرُ دَرَجَات، وَكَانَ وكان له في يومه ذلك حرزًا منْ كُلِّ مَكْرُوه، وَحرْزًا**[96] **منَ الشَّيْطَان، وَلَمْ يَنْبَغ لذَنْبٍ أنْ يُدْركَهُ ذَلكَ الْيَوْمَ إلاَّ الشِّرْكَ بالله»**. قال التِّرمذي: «حديث صحيح»[97].

ـ وذكر أبو حاتم في «صحيحه» أنَّ النَّبيَّ ﷺ يقول عند انصرافه من صلاته: **«اللَّهُمَّ أصْلحْ لي دينيَ الَّذي جَعَلْتَهُ عصْمَةَ أمْري، وَأصْلحْ لي دُنْيَايَ الَّتي جَعَلْتَ فيهَا مَعَاشي، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ برضَاكَ منْ سَخَطكَ، وَبعَفْوكَ منْ نقْمَتكَ، وَأعُوذُ بكَ منْكَ، لا مَانعَ لمَا أعْطَيْتَ، وَلا مُعْطيَ لمَا مَنَعْتَ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ منَ الْجَدِّ»**[98].

ـ وأوصى معاذًا أن يقول دبر كلِّ صلاة: **«اللَّهُمَّ أعنِّي عَلَى ذكْركَ، وَشُكْركَ، وَحُسْن عبَادَتكَ»**[99] انتهى[100].

قلت: وأخرج النَّسائي وغيره عن زيد بن ثابت قال: أُمروا أن يسبِّحوا دبُر كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين، ويحمَدوا ثلاثًا وثلاثين، ويكبِّروا أربعًا وثلاثين.

قال: ورأى رجلٌ من الأنصار في منامه؛ فقيل: أمرَكم رسولُ الله ﷺ أن تسبِّحوا دبُر كلِّ صلاة ثلاثًا وثلاثين، وتحمَدوا ثلاثًا وثلاثين، وتكبِّروا أربعًا وثلاثين. قال: نعم، قال: فاجعَلُوها خمسًا

(86) رواه البخاري (852)، ومسلم (707).
(87) رواه مسلم (708).
(88) في الأصل: عمر.
(89) رواه أحمد (6627)، وابن ماجه (931)، وحسَّن إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح أبي داود» (207/4).
(90) رواه مسلم (670).
(91) رواه البخاري (6330)، ومسلم (593).
(92) رواه مسلم (594).
(93) رواه مسلم (771)، وأبو داود (760)، والترمذي (3421).
(94) رواه مسلم (597).
(95) رواه البخاري (6329).

(96) في الزاد: «وحرس».
(97) «سنن الترمذي» (3474)، وفيه: «حسن صحيح غريب»، وفي الزاد: «حسن صحيح».
(98) صحيح ابن حبان (2026).
(99) رواه أحمد (22119)، وأبو داود (1522)، والنَّسائي (1303)، وهو في صحيح الجامع (3036).
(100) «زاد المعاد» (305.295/1) بتصرف.



وعشرين، واجعَلوا فيها التَّهليل، فلمَّا أصبح أتى النَّبيَّ ﷺ فذكر ذلك له قال: «**اجْعَلُوهَا كَذَلِكَ**»[101].

.وأخرج النَّسائي عن ابن عمر أنَّ رجلاً رأى فيما يرَى النَّائم، قيل له: بأيِّ شيءٍ أمرَكم نبيُّكم ﷺ؟ قال: أمرَنا أن نسبِّح ثلاثًا وثلاثين، ونحمَد ثلاثًا وثلاثين، ونكبِّر أربعًا وثلاثين، فتلك مائةٌ. قال: سبِّحوا خمسًا وعشرين، واحمَدوا خمسًا وعشرين، وهلِّلوا خمسًا وعشرين، فتلك مائةٌ. فلمَّا أصبح ذكَر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «**افْعَلُوا كَمَا قَالَ الأنْصَارِيُّ**»[102].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في مسند الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ بعد سياق حديث أبي الزبير[103] المتقدِّم: «هذا حديثٌ صحيحٌ أخرجه مسلم وأبو داود والنَّسائي، وفائدة رفع صوته ﷺ بهذا التَّهليل يُسمِع مَن وراءه/ من المصلِّين فيقولون قوله ويتعلَّموه[104]، وهذا منسوبٌ للإمام.

وقوله «**وَحْدَهُ**» أي منفردٌ بالإلهيَّة، والوحدة الانفراد، وهو منصوبٌ على المصدر، والمراد لا شريك له في الإلهيَّة والانفراد بها؛ لأنَّ من أُثبت له الانفرادُ بالإلهيَّة بالنَّفي العام والإثبات الخاص، وأكَّد ذلك بالانفراد والوحدة، فجديرٌ أن لا يبقى له شريكٌ، وإنَّما جاز قوله «**لاَ شَرِيكَ لَهُ**» لأنَّ التَّهليل قد أفاد نفيَ الشَّريك؛ لأنَّه دلَّ عليه التَّهليل دلالةَ التَّضمُّن والكفاية، فجاء باللَّفظ الَّذي دلَّ عليه دلالةَ المطابقة والتَّصريف»[105].

قلت: قال الحافظ ابن حجر في قوله «**وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ**»: «تأكيدٌ بعد تأكيد اهتمامًا بمقام التَّوحيد» انتهى[106].

قال ابن الأثير: «ثمَّ أتبعه مؤكِّدًا بصفات الرُّبوبيَّة المضافة إلى الوَحدة؛ فقال: «**لَهُ المُلْكُ، وَلَهُ الحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ**»، فجاء بصفة الملك الَّذي هو دليل الغَلبة والقهر والسَّلطنة؛ فإنَّ صاحب الملك هو الَّذي يحكم في ملكه وعباده، ثمَّ أردف بصفة الحمد الَّذي هو ثمرة الإنعام؛ لأنَّه لمَّا أثبت له الملك أضاف الموجودات كلَّها إليه، وأرزاقَ الحيوانات، وتدبير المملكة عليه؛ [فقال يريد][107] على ما ثبت في ملكه من حسن التَّدبير، واللُّطف بالصَّغير والكبير، ثمَّ ثلَّث بصفة الإحياء والإماتة اللَّذين هما ظرف الوُجود والعدم، والمبدأ والمعاد، ثمَّ قال: «**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**» فجاء باللَّفظ العام الجامع لجميع الأشياء، فتبارك الله ربُّ العالمين» انتهى المقصود.

قلت: فتدبَّر ما أشار إليه هذا الإمام من معنى هذا الحديث؛ يُطلعك على معاني هذه الأذكار النَّبويَّة.

وكلُّ جملة من هذه الجمل الَّتي [ ][108] لبيان بعض معانيها تدلُّ على أنواع التَّوحيد الثَّلاثة مطابَقةً وتضمُّنًا والتزامًا؛ فإنَّ قوله «**لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ**» يدلُّ على كمال ربوبيَّته مطابَقةً، وذلك يستلزم انفرادَه بالإلهيَّة؛ فلا يستحقُّ أن يعبد إلاَّ هو وحدَه لا شريك له، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ يدلُّ على كمال قدرته وتصرُّفه في جميع خلقه، ويدلُّ على كمال ربوبيَّته وإلهيَّته، وأنَّه ربُّ كلِّ شيء، ومليكه، ولا كفؤ له، ولا شريك له، وأنَّه هو الَّذي يستحقُّ العبادة بجميع أنواعها، لا تصلُح إلاَّ له وحدَه لا شريك له، وذلك مستلزمٌ لكمال ذاته وصفاته، فله الكمال المطلَق في الذَّات والأسماء والصِّفات، تعالى وتقدَّس عن مشابهة المخلوقين، وتنزَّه عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وتوحَّد في الجلال والكمال، لا ندَّ له، ولا شريك له، ولا شبيه له، ولا مثال.

وأمَّا دلالة كلمة الإخلاص على توحيد الإلهيَّة ونفي الشِّرك مطابَقةً وتضمُّنًا فتقدَّم في كلام ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ ما ينبِّه على ذلك، ويرشد إليه، والله المستعان[109].

(101) «سنن النَّسائي» (1350)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (210/1).
(102) «سنن النَّسائي» (1351).
(103) أي: عن ابن الزبير، وتقدم تخريجه من مسلم.
(104) كذا في الأصل، والصَّحيح: (يتعلَّمونه) لخلوِّه من النَّاصب والجازم.
(105) هذا النص ساقط من كتاب الشافي لابن الأثير، لنقص في النسخ الخطية المعتمدة.
(106) لم أجده بهذا اللفظ! وقد ذكره القاري في «مرقاة المفاتيح» (35/3)، وفي «فتح الباري» (92/11) كلام بمعناه.
(107) كذا في الأصل!

(108) كتب النَّاسخ على الهامش: بياض في الأصل. ولعلَّها: «أوردتها».
(109) انظر «فتح المجيد» (ص 214).



عبد المالك بن مبروك

إعلام الأبيّ بكيفيّة نصرة النَّبي ﷺ

. نونية السّلماني .

نفديكَ بالأرْواح والأبدانِ ... يا مَن يُقرُّ بفضلِه الثقَلانِ

يا مَنْ أتانا بعد طول جهالة ... وهَدَيْتنا للخيْرِ والإحسانِ

فالله أنقذنا ببِعثة أحمدٍ ... منْ ظلمة الإشراك والعصْيانِ

وبأحمد ختمَ النبوّةَ ربنا ... وبه أتمَّ بقيَّة البنْيانِ

وأقام حجَّتَهُ على كل الورى ... بالمُعْجزات ووَحيِه القرآني

إذْ سبحتْ صُمُّ الحصى في كفّه ... وكذا الطعامُ بقدْرة الرّحمنِ

سمِعوا أنينَ الجِذع بَعْدَ فِراقه ... فحنَا عليْه برحمة وحنانِ

وأشار للقمرِ المنير بإصْبعٍ ... مُتحدِّيًا فإذا هما شقَّانِ

أسرى به الرحمنُ في ليلِ الدُّجى ... فوْق البراق بسُرْعة وأمانِ

ثم ارتقى نحْوَ السماوات العلى ... متجاوزًا لقواعِد الإنسانِ

هذا الذي بعث الإلهُ مُبشّرا ... للمؤمنين برحمة وجنانِ

هذا الذي بعث الإلهُ مُحذّرا ... للكافرين عُقوبة النِّيرانِ

لم يدّخرْ جُهدا وعاش مُجاهدا ... لله أخلصَ ليس بالمتَواني

فهو الذي ضحىّ بكلّ نفيسة ... مُتصَبرًا ونأى عنِ الأوْطانِ

حتى يُبلّغ في الحياة رسالةً ... للعالمينَ لإنسِهمْ والجانِ

ياليتَ شعري كيف ينكرُ فضلَهُ ... قوْمُ اليهودِ وعابدو الصُّلْبانِ

هل يُنكرُ الشمسَ المُضيئة مبْصرٌ ... والشَّمسُ باديةٌ برأي عيانِ؟

لا تعجبوا فالقوْمُ عُمْي بصائر ... والضوءُ محْجوبٌ عن العُمْيانِ

ماذا يقول الأدعياءُ تسامُحاً ... والمُدّعونَ لوحدة الأدْيانِ

ما ذا يقول من ادَّعى أنَّ النصا ... رى إخوةٌ في الدِّين والإيمانِ

أو مَنْ يقول عن اليهود بأنهم ... لم يُخْطئوا إلا بالاسْتيطانِ

نسبوا إلينا العُنفَ والإرهاب والت ... تَقتيل يا للظلم والبُهتانِ

إن الحروب العالميَّة كلّها ... منْ عندهم بدأتْ بلا نكْرانِ

صنعوا السلاح وبئسَ ما فعلوا به ... فقَضَوْا على الإنسان والعُمْرانِ

وهمُ الذين استدْمروا أوطانَنا ... بالقتل والتجهيل والطغْيانِ

أنظرْ إلى أفعالهم في «بُسْنة» ... وجرائم لـ«لروس» في «الشيشانِ»

أنظر إلى «القدس الشريف» وما جرى ... عبرَ العصور لهُ من العُدْوانِ

أنظر إلى أرض «العراق» فإنها ... صارتْ كجحر الضَّب والثعبانِ

وانظر إلى إخواننا في «بُرمة» ... يَحيونَ تحتَ مذلّة وهَوانِ

يتجرّعون عذابهم في غُربة ... ويُحَرَّقونَ هُناك بالنيرانِ

وبلاد «إفْرقيا» بجل ربوعها ... لمّا غزاها الروم كالجرذانِ

وهُمُ «الفرنْسيسُ» وأهْلُ «انجلْترا» ... بمَعيّة «الألْمانِ» و«الإسْبان»

و«هلندة» في شرق «آسية» وفي ... بعض البلاد جحافل «الطليان»

همْ منْ تسبّبَ في تأخر ركْبنا ... وتبَجحوا بحضَارة الإنسانِ

وإذا نظرتَ إلى المعيشة عندهمْ ... لوجدَتهُمْ في سَكْرة العَمَهَانِ

فترى الفواحشَ عندهم مَحميّةً ... قانونُها متمكنُ السرَيانِ

والخمْر عندهُمُ شرابٌ سائغٌ ... لا يكْرهونَ الوصْفَ بالسَّكْرانِ

كذبوا ـ لعمري ـ لنْ يحُطّوا قدْرَهُ ... نيلُ الكواكبِ ليْس في الإمْكانِ

خابوا ـ وربّي ـ لن ينالوا بُغيةً ... بالرسم والتمْثيل والبُهْتانِ

فالله ينصرُ دينَه ونبيهُ ... فاصبر أُخَيّ وكن على اطمئْنانِ

ولقد كفى الله العظيمَ نبيهُ ... منْ هزءِ أهْلِ الشرْك والكُفْرانِ

واحذرْ تصرّفَ مَنْ تحمَّسَ طائشا ... ودَعا إلى التفجير والعُدْوانِ

لا تنتقمْ من أبرياءَ أتوا إلى ... بُلْداننا دخلوا بعقد أمانِ

فالظلم منْهم لا يُبيحُ خيانةً ... لعُهودنا معَهُمْ منَ السَّلطانِ

لا تكسروا لا تُحْرقوا لا تُفسدوا ... إنّ الفسادَ وسيلة الشيْطانِ

إن النوازلَ ليسَ يدْركُ كُنْهَها ... إلا الإمامُ العالمُ الرّباني

فاسألْه والزمْ غرْزَه تفلحْ ولا ... تسْتفْتِ كلَّ مُهَرّج فتانِ

فالعلم قال الله قال رسولُهُ ... فاعلمْ وكُنْ منْهُ على استيقانِ

فهُمُ الصحابة والألى تبعوهُمُ ... والتابعونَ أوْلاءِ بالإحسانِ

لن تنصروه بما يُخالفُ شرْعَهُ ... فدَعِ التظاهُرَ يا أخا الإيمانِ

أهلُ الحديث همُ الألى نصروهُ في ... كلّ العصور بهِمّةٍ وتَفانِ

طلبوا الحديثَ وبلّغوه بدقّة ... بالجرْح والتعديل والإتقانِ

شرحوا أحاديث الرسول وفصّلوا ... أحكامها بالفقه والبرهانِ

وحمَوْا عقيدتنا من التحريف والت ... تأويل والتعطيل والبهتانِ

وضَعُوا القواعدَ والحدودَ بدقة ... ممّا أتى بدليله الوحْيانِ

لا بالخرافة والتصوُّف والهوى ... أو ما جناه المنهجُ العقلاني

جعلوا أصول الفقه قِسطاسا له ... وبه عرَفنا مذهبَ الرُّجحانِ

إن الذي يؤذي النبيَّ حقيقةً ... ما نحن فيه اليوم منْ خذلانِ

ويَغيظُه منا تفرُّقُ شملنا ... منْ أرْض «شنقيط» إلى «عَمّانِ»

ويغيظُه منّا ضَياع صلاتنا ... وزكاتنا وتبرّجُ النّسْوانِ

إن الحجاب عبادة وفضيلة ... رمزُ العفاف وسُترة الأبْدانِ

يا ليْتَ شعري مَنْ يُفرّق شملنا ... أرُسومهمْ أم شيعة الإيرانِ؟

يا ليْتَ شعري مَنْ يُحرّفُ دينَنَا ... أفلامُهمْ أم ملّة القدْياني؟

يا ليْتَ شعري من يزلْزلُ بيتنا ... بُهْتانُهمْ أمْ ردّةُ الشبّانِ؟

يا ليْتَ شعري من يُطيلُ سُباتنا ... تمثيلهُمْ أمْ حفلة الفنّانِ؟

يا ليْتَ شعري من أضرَّ شبابنا ... إرهابهم أمْ عُشبة الدّخّانِ؟

يا ليْتَ شعري من أضاع شبابنا ... بمدُرّجات ملاعب ورهانِ؟

يا ليْتَ شعري من يُهدّدُ أمْننا ... إعْلامُهمْ أمْ ثوْرة الصّبيانِ؟

انصرْ نبيك باتباع سبيله ... واترك سبيل الشرك والعصيانِ

لا تدْعُ غير الله مهما كان في السّ ... سَرَّاء والضرَّاء والأحزانِ

فهو المُجيبُ لمنْ دعاهُ فلا تكُنْ ... مُتهاوناً بعبادة الوُجدانِ

لا تذبحنّ لِمَا سواهُ وكذّب ال ... أبراجَ واحذرْ زرْدةَ الأوثانِ

لا تحلفنّ بغير ربك إنّه ... شرك ولا تكثِرْ من الأيْمانِ

فالشِّرك بالرَّحمن ذنب مهلك ... إذ ليس للإشْراك من غفرانِ

لا تبتدعْ في الدين فهو ضلالة ... وتشبُّهٌ بمُحرّ في الأدْيانِ

فإذا أضفتَ إلى الشريعة بدعة ... فقد اتهمْتَ الدينَ بالنُّقصانِ

إياك والخمرَ اللعينة إنها ... أمّ الخبائث مسلك التّيهانِ

واحذر جميع المسكرات ولا تكن ... متساهلا بتناول الدّخانِ

فالعقل من نعم الإله على الفتى ... والفرق بين الإنس والحيَوانِ

ودع الرِّبا واحذرْ جميعَ شِراكه ... فالرِّبح فيه مَطيَّةُ الخُسْرانِ

لا تَكذبنّ وكنْ صدوقا دائماً ... فالصّدقُ منك علامة الإيمانِ

فالويل للكذّاب يُضحِك غيرَه ... أو كي ينالَ منَ المتاع الفاني

تُبْ يا أُخَيَّ ولا تُصر على الذنو ... ب فإنها للروح كالسَرَطانِ

مهما فعلْتَ فإنّ ربك غافر ... ذنْبَ المُنيب المُقبلِ اللهْفانِ

الدين يُسر يا أُخَيّ أصالةً ... منْ دونِ ما حَرج على الإنسانِ

ويضافُ أيْضًا للعزائم رُخصَةٌ ... للعجزِ والإكْراه والنّسْيانِ

أقم الصلاة وصمْ وأدِّ زكاةَ ما ... لكَ ثمّ حُجّ شريطَة الإمكانِ

والأمَر بالمعروف فرْضُ كفاية ... وكذاك رفضُك مُنكرًا سيّانِ

أدِّ الأمانةَ والوديعةَ مثلما ... وُضعتْ لديك بغير ما نُقصانِ

أحْسنْ إلى أبوَيْك جَهدك إنّهُ ... بعدَ العقيدة في المَقام الثاني

أدِّ حقوقَ المسلمين جميعهم — وعلى الخصوص الأهلِ والجيرانِ
أحْسنْ وأكرِمْ ذاك أمر نبيّنا — بروايتين رواهما الشيخانِ
وتَحلّ بالخلق الكريم فإنّهُ — منْ أثقل الأعمال في الميزانِ
فإذا التزمتَ بأمرِهِ وبنَهْيِهِ — وأَطعتَهُ بالحبِّ والإذعانِ
فهناك تنصره على أعدائه — وتنال منه شفاعةً بضمانِ
إن الرسول ودينَه الإسلامَ منْ — آثار نعمَة ربنا المنّانِ
أجر الجميع إلى القيامة راجعٌ — لنبينا الهادي بلا نقصانِ
فهو الذي دلّ العبادَ على الهُدى — وهو الذي قد جاء بالفرقانِ
هو نِعمة أسدى الإله لخلقه — هو رحمة للناس والحيوانِ
هو من يقود المسلمين جميعهم — يوم الحساب لجنة الرّضوانِ
هو خير مَن وطِئَ الثرى وهو الذي — كشفَ الظلام بهدْيه النُّوراني
صلّوا عليه فإن كلّ صلاتكم — وسلامكم يُهدَى بكل ضمانِ
فالله وكّل من يُبلّغُ عنكمُ — تسليمَكمْ في الحين يا إخواني
صلّى الإله على النبيّ محمد — مقدارَ ما في الأرض من إنسانِ
صلّى الإله على النبيّ محمّد — مقدارَ ما في البحْر من حيتانِ
صلّوا عليه وسلّموا فالله قد — أمرَ العبادَ بذاك في القرْآنِ
هذي هدية مسلم لنبيّهِ — جهْدَ المُقلّ وحيلةَ الحيرانِ
هذا جهاد باللسان وربّما — سبقتْ رُدودُ العلم كُلَّ سَنانِ
دافعتُ عنْ خير البريّة أحْمد — أرْجو ثوابَ الواحد الدّيّانِ
بقصيدة نونيّة ذهبيةً — أبياتُها حاكتْ عقودَ جُمانِ
ضمّنْتُها مِنْ كلّ رَوْض زهرةً — قدْ أشْبهتْ «نونيّة القحطاني»
مُتقفيًا نهْج النبي وصحبِهِ — خيرِ القرونِ وأنجُم الأكوانِ
مُتتبّعا آثارَهم مُتشبها — سمَّيتها «نونيّةَ السّلْماني»
لمجلة «الإصلاح» قد أهديتها — حقّقتُ رغبة شيخنا «رمَضَاني»
واختَرْتُ بحْرًا كاملاً متأسّيًا — بكمال دين نبيّنا العدناني
وختمْتها مثلَ البداية قائلا — «نفديك بالأرواح والأبدانِ»

تقدير العالِم وتقديس الحق

أحمد معمر
ليسانس في علوم الشريعة - تيارت

إنَّ العيَار وقاعدةَ الاعتبَار، في قَبُول الأقوال وترجيح الاجتهادات، هو قَفوُ الدَّليل والسَّير على مَسَار الحجَة، مع التَّغاضي عن منازل القائلين بها ورُتبهم، تجرُّداً للحقّ المبين، وتحرُّراً من التّعصّب المقيت

كلُّ من كانت له وشيجةٌ في رحم العلم والعلماء، اختصَّ ولا بدّ بحُبِّ جملة من أهل العلم الفُضلاء، ونالَ حظّه من الإعجَاب بهم، وهذا أمر لا بدّ أن نَستوقف خَواطرنا لأجله، ونراجع عندَه كَوامنَ نفوسنَا، ليتسنّى لَنَا تمَحيص مَواقفنا ممّن نجلّهم. وقدْ حَلَّت في قلوبنا المكَانَة لهم ولآرائهم. ونستعدّ باليقظة والتحرُّز من تأثير حبّنا للعالم على ترجيح المذاهب ودراسة الأقوال، فإنّ المنصف من يحفظ لأهل العلم مكانتهم دون أن يجعل لها دخلاً في وزان الآراء، ويستحضر دائماً أنَّ العبرة ليست بقدر القائل الجليل، ولكن العبرة بمكيال الدّليل، ورحم الله المحدّث الألباني لَمَّا قال: «الحقُّ يُعرف بنوره ودلائله، لا بحاكيه وقائله»[1].

إنَّ صدق التَّجرُّد في طَلَب الحقّ، والإنصاف في استبيان سَبيله، لا يَستَتِبّ لعَبد تَعَطَّفَ بأرديَة التَّعصّب الأعمى، سواء تعصّب لرأيه أو رأي متبوعه، فإنّ التّعصب يُعمي ويُصمّ عن الهدى، ويقعد بذويه عن اتّباع الحقّ، وقلّ أن تجد متعصّباً إلاّ وهو يَتقلّب في سلسلة منَ الآفات، فهو يرى محاسن ما يستحسنه من رأيه ومذهبه ويعمى عن مساوئه، ولا يرى نقده. ولو بالأدلّة. إلاّ ضربًا من الحَسَد، كمَا يَعتقد أنَّ تَعصّبَه لرَأيه ثباتًا عَلَى الحقّ!، والدِّفَاع عَن (فَهمه للدَّليل) انتصارًا للدَّليل، ويظنُّ الاطِّلاع على أدلَّة مخالفه تعرّضًا للشُّبَه!، وينشغل بإبراز مَذهَبه وإشهَاره، عن إمعَان التَّثبُّت والمراجَعَة لأفكَاره، وفي كلّ ذلك تجد تَعصّبَه ثريًّا بالأحكَام الجَاهزة، والانطبَاعَات المسبقة!.

إنَّ العيَار وقاعدةَ الاعتبَار، في قَبُول الأقوال وترجيح الاجتهادات، هو قَفوُ الدَّليل والسَّير على مَسَار الحجّة، مع التَّغاضي عن منازل القائلين بها ورُتَبهم، تجرُّداً للحقّ المبين، وتحرُّراً من التّعصّب المقيت، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وَلا يَجُوزُ لأحَد أن يُرَجّحَ قَولا عَلَى قَولٍ بِغَيرِ دَلِيل، وَلا يَتَعَصّبُ لقَول عَلَى قَولٍ وَلا لقَائِلٍ عَلَى قَائِلٍ بغَيرِ حُجَّة»[2].

«فيتخرَّج المذهَب الحَقّ، والقول الصِّدق، والطّريق السّويّ، والمشرَع الرَّويّ: الأخذ بالدّليل مع إجلال أئمة العلم والدّين»[3]، والإمَام أو العَالم الَّذي «تَبيَّن أنَّ الصّواب في قَوله، وَجَب اتّبَاعه من أجل أنَّه صَوَاب، لاَ من أجل أنّهُ قَول فُلان أو فُلان!»[4].

وفي ذلك يقول ابن الجوزي: «واعلَم أنَّ المحقِّق لا يهولُه اسمُ مُعظَّم، كما قال رجل لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أتظنّ أنَّا نظنُّ أنَّ طَلحة والزُّبير كانا على الباطل؟

فقال له: «إنَّ الحقّ لا يعرف بالرجال، اعرف الحقّ تعرف أهله»[5].

(1) «فقه الواقع» للعلاّمة الألباني رَحِمَهُ اللهُ (ص 4).

(2) «إقامة الدَّليل على إبطال التَّحليل» (215/2).

(3) «التّعالم وأثره على الفكر والكتاب» للشّيخ بكر أبو زيد (المجموعة العلمية) (127).

(4) «فتاوى نور على الدَّرب» لابن عثيمين، وهي نكتة تستحقُّ التَّأمُّل!.

(5) في «صيد الخاطر» (ص30).

وقد يستحـقُّ أن نستلفت النَّابه، إلى أنَّـه وإن كان التعصُّـب المذهبـي صـار يستثـير النَّكـيرَ والهجرَ من لفيـف يُعبأ بـه من المسلمـين، إلاّ أنَّ أحدَنا من حيث يـدرك أو لا يدرك، قد يحتَويه تعصُّب لا مذهبـي، ذلـك التَّعصُّب الَّـذي لا يعيِّنه عنـوان، ولا يـدلُّ عليـه لقـب، وحقيقته تتجلَّـى في الطُّمأنينـة لأحد العلمـاء[6]. الَّذين شاع علمُهم بمنهج السَّلف والتَّحرُّر مـن التَّعصُّـب. وقَصـر الاقتنـاع علـى ترجيحاتـه، والصُّـدور عن أقوالـه، إمَّا على نهج شامـل أو جزئي ينتظم مسائل متعدِّدة، فيوالي ويعـادي عليها!، وغالبًا ما يكـون باسـم التَّـبرُّؤ مـن التَّعصُّب، ومحاربة التَّزمُّـت المذهبي، وينشأ تحتَ محاولَـة التَّخلُّص مـن لوثـة التَّعصُّب انصياعًا لتحذير العلمـاء المحقِّقين من شرِّه، فيفـرُّ من مقيت التَّعصُّب المذهبي إلى التَّقيُّـد بالشَّيـخ الَّـذي يجلُّـه لأجل محاربَتِـه للتَّعصُّب، ورُبَّمـا نَدَّد بتعصُّب فُـلان لمذهبه، في حـين يقبَعُ هـو أسيرًا لرأي شيخه فلاَن!

قال ابـن تيميَّـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «.. وإذا تفقَّه الرَّجل وتـأدَّب بطريقة قوم من المؤمنين مثـل اتِّبـاع الأئمَّـة والمشايـخ، فليس له أن يجعـلَ قدوتَـه وأصحابَه هـم العِيار، فيوالي مَن وافقهم، ويُعادي مَن خالفهم، فينبغي للإنســان أن يعوِّد نفسَـه التَّفقُّه الباطن في قلبـه والعمل به، فهذا زاجرٌ، وكمائنُ القلوب تَظهر عند المِحَن، وليس لأحـد أن يدعـو إلى مقالـة أو يعتقدهـا لكونها قولَ أصحابه، ولا يُنَاجز عليها بل لأجل أنَّهـا ممَّا أمر الله بـه ورسوله، أو أخبر الله به ورسولـه، لكون ذلك طاعة لله ورسوله»[7]اهـ.

هنـاك خلل ظاهـر حال بـين عقول كثيريـن، واستيعاب الحـدّ الفاصل بين حقائق المنهج و مكانة الأشخاص[8]، لذا تجدهم أُسَارَى للقائل قبل دليله، والحقُّ أنَّ القولَ يُستمد سُلطانه وقُوَّته من دليله وبرهانه، لا من وجاهـة قائله، وبعضهم يُناضـل في دَفـع من خَالف قَـول شَيخه، ظنًّـا منه أنَّ ذلك من سَبيـل تَعزيز حُبّه لأهل العلـم والوَفَاء لهم، ولم ينتبه فكره إلى أنَّ حـبّ العـالم تسبقـه الغيرة على الحقّ، كما أشار إلى هذا ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «شيخ الإسلام حبيبُنا ولكنَّ الحقَّ أحب إلينا منه»[9]، وصدق مَن قال: أُحبُّ الحقَّ وفلاناً ما اجتمَعَا، فإذا افترقا كان الحقُّ أحبَّ من فـلانٍ ومن نفسي ومالي وأهلي وولدي والناس أجمعين.

ومـن مظاهـر التَّعصُّـب الخفـيِّ، استيحاش بعضهم من نسبة الخطأ إلى شيخه ومُعَظَّمِـه، واندهاشه من التَّجرُّء علـى مخالفته، وأكثرهـم وإن كان ينفي عصمة شيخه ومتبوعه، لكن يعزُّ عليه أن ينسـب إليه سَهوًا أو خطَأً، وهذا من الغلوّ المنـافي لمعتقد أهل السُّنَّة والجماعة، من أنَّ العصمـة دفنت مـع النَّبي ﷺ، وكلّ عالم مهما عـلا كعبه يُخطـئ ويصيب، وله من قول الإمـام مَالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ نصيب: «كلٌّ يؤخَـذ من قولـه ويـردُّ، إلاَّ صاحب هذا القَبر»[10].

فـإذا كنـت ممَّـن إذا لاَحَ لَـه الحقّ وانجلَى أمَـامَ نَاظرَيـه، نَازَعتك نَفسك وشَقّ عَليك التزَامـه؛ لأنَّه يضطرُّك إلى تجاوز مذهب ألفته ونشأت عليه، أو قول شيـخ جليـل القَـدر وَاسع العِلـم تَبعتَه فيـه، أو رَأي جماعَة انتَسَبت إليهَا!، فقد أَخذَت من مَذمُوم التَّعصُّب بنَصيب، ألا فليَكـن بَالنُـا عَلَى ذِكر، لآيـة من أعظَم الذِّكـر، يقـول الله تعـالى فيها: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥﴾، (ولم يقـل: ويـوم يناديهم مـاذا أجبتم فلانًا وفلانًا!)[11].

والله الهادي إلى سواء الصِّراط.

(6) غير خاف أنَّ اتِّباع (أهل الذِّكر)، هو فريضة من عجز عن الاجتهاد في استخراج الأحكام، وإنَّما يتمحَّض النَّكير على من تمسَّك بأقوال أحد العلماء، لا لموجب شرعي ولكن تعصُّبًا وتزمُّتًا!

(7) «مجموع الفتاوى» (8/20).

(8) رحم الله الإمام البشير الإبراهيمي حيث قال: «يا قوم! إنَّ الحقّ فَوقَ الأشخَاص، وإنَّ السُّنَّة لا تُسَمَّى باسم مَن أحيَاهَا» «الآثار» (122/1).

(9) «مدارج السالكين» (394/3)، ويقصد: محمد بن إسماعيل الهروي صاحب «منازل السائرين».

(10) «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي (93/8)، «البداية والنهاية» لابن كثير (160/14).

(11) «كتاب العلم» للعثيمين (277/1).



كيفية الاشتراك..



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج



الإصلاح في أربعة مجلدات من العدد (1) إلى العدد (23)

يطلب من دار الفضيلة للنشر والتوزيع بسعر (2200 دج) شامل لمصاريف الشحن



واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

سلطة العلماء:

■ قال العلامة البشير الإبراهيمي رحمه الله:

«ولعلماءِ الإسلام سُلطانٌ على الأرواح، مستَمدٌّ من روحانيَّة الدِّين الإسلامي وسُهولَة مدخَله إلى النُّفوس تخضَع له العامَّة عن طواعيَّة ورغبَة، خضوعًا فطريًّا لا تكَلُّفَ فيه، لشُعورها بأنَّهم المرجع في بيانِ الدِّين، وبأنَّهم لسانُه المعبِّر حقًّا عن حقائقه، والمبيِّن لشَرائعه، وبأنَّهم حُرَّاسُه المؤتَمنون على بقائه، وبأنَّهم الورَثَة الحقيقيُّون لمقام النُّبوَّة، وكانَ العُلماء يجمَعون بين وظيفَة التَّبيين في التَّعبُّديَّات، وبين وظيفَة التَّقنين في المُعاملات؛ أمَّا الخلفاء فلَم تكُن وظيفتُهم ـ في الحقيقة ـ إلَّا التَّنفيذ لما يَراه العُلماء مِن مصلَحَة في المعاملات الفَرديَّة أو الاجتماعيَّة».

[«آثار الإمام البشير الإبراهيمي» (3/ 308)]

تحذير من القبورية:

■ قال الشَّيخ أحمد حماني رحمه الله:

«وكانت عبادة الأضرحة قد ازدهرت في ظلِّ الاستعمار حتَّى بلغ الأمر بالمعمِّرين الكبار أن يجعلوا في حقولهم ضريحًا لـ (سيدي عبد القادر) يحرسُ لهم أموالهم، ويخافُه العامَّةُ أكثرَ من خوفِهم منَ الله، ويكونُ حارسًا لما نهَبُوه منَ الشَّعب.

وهاجمَ العلماءُ هذا الاعتقادَ حتَّى كادَ يضمَحلُّ، وعاد أخيرًا التَّنويهُ بالأضرحَة وأصحابها، وصرنا نسمَعُ فيما يُذاع أسماء: سيدي بومَدين، وسيدي منْصُور، وسيدي الخيِّر، وسيدي عبد الرَّحمن، وكلٌّ ناحية لها (سيِّدُها) و(ربُّها)، وحُقَّ لنا أن نتساءل مع يوسُف عليه السلام ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾؛ ولا شكَّ أنَّ في هذا الازدهار للقُبور والقُبوريِّين ضلالا لنا، وإضلالًا لناشئتنا لا يجوزُ السُّكوت عنه».

[«فتاوى الشَّيخ أحمد حمَّاني» (1/ 115. 116)]

الاشتغال بعيوب الناس:

■ قال الإمام عون بن عبد الله رحمه الله:

«إذا أزرَى أحدُكم على نفسه فَلا يقُولنَّ: ما فيَّ خيرٌ، فإنَّ فينَا التَّوحيد، ولكن ليَقُل: قَد خشيتُ أنْ يُهلكَني ما فيَّ منَ الشَّرِّ، وما أحسبُ أحدًا يفرغُ لعَيْب النَّاس إلَّا عن غفلَة غفَلَها عن نفسِه؛ ولو اهتمَّ بنفسِه ما تفرَّغَ لعيبِ أحدٍ ولا لذمِّه».

[«شعب الإيمان» (6/7566)]

عمل العالم:

■ قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«للعَالم إذا عَمل عمَلًا يخشَى أن يلتَبس على مَن رآه أن يُعلِمَهم بحقيقة الأمرِ؛ لئَلَّا يحملُوه على غَير محمَلِه».

[«فتح الباري» (3/127)]



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

■ «فترك أهل العلم لتبليغ الدِّين، كتَرك أهل القتال للجهاد، وتَرك أهل القتال للقتال الواجب عليهم، كتَرك أهل العلم للتَّبليغ الواجب عليهم، كلاهما ذنبٌ عظيمٌ».

[«مجموع الفتاوى» (188/28)]

■ ■ ■

■ «المتابعَة: أن يفعَل مثلَما فعَل، على الوجه الَّذي فعَل، لأجل أنَّه فعَل».

[«مجموع الفتاوى» (467/17)]

■ ■ ■

■ «فالنُّفوس أحوَجُ إلى معرفَة ما جاءَ به ـ أي النَّبي ﷺ ـ واتِّباعه منها إلى الطَّعام والشَّراب؛ فإنَّ هذَا إذَا فاتَ حصَلَ الموتُ في الدُّنيا، وذاكَ إذَا فاتَ حصَلَ العذَابُ».

[«مجموع الفتاوى» (5/1)]

■ ■ ■

■ «كما أنَّ نورَ العَين لا يَرى إلَّا معَ ظُهُور نُور قُدَّامَه، فكذلكَ نورُ العَقل لا يهتَدي إلَّا إذَا طلَعَت عليه شَمْسُ الرِّسالَة».

[«مجموع الفتاوى» (6/1)]

■ ■ ■

■ «والشَّرعُ نورُ الله في أرضه، وعدلُه بينَ عباده، وحصنُه الَّذي مَن دخَلَه كانَ آمنًا».

[«مجموع الفتاوى» (99/19)]

■ ■ ■

■ «واعلَم أنَّ أكثَر الاختلاف بينَ الأمَّة الَّذي يورث الأهواء تجده من هذَا الضَّرب، وهُو أن يكونَ كلٌّ واحد منَ المختَلفين مصيبًا فيما يثبتُه أو في بعضه مخطئًا في نفي ما علَيه الآخر، كما أنَّ القَارئين كلٌّ منهُما كانَ مصيبًا في القراءَة بالحرف الَّذي علمُه مخطئًا في نفي حرف غيره، فإنَّ أكثَر الجهل إنَّما يقَع في النَّفي الَّذي هُو الجُحُود والتَّكذيب لا في الإثبات؛ لأنَّ إحاطةَ الإنسانِ بما يثبتُه أيسَر من إحاطته بما ينفيه».

[اقتضاء الصراط المستقيم (145/1)]

■ ■ ■

■ «لا يحصلُ الإخلاصُ إلَّا بعد الزُّهد، ولا زُهدَ إلَّا بتَقوى، والتَّقوى متابعَةُ الأمر والنَّهي».

[«مجموع الفتاوى» (94/1)]

■ ■ ■

■ «مَن سرَّه أن يكونَ أقوَى النَّاس، فليتَوكَّل على الله».

[«مجموع الفتاوى» (55/1)]

■ ■ ■

■ «وأمَّا كيفَ يحصُل اليقينُ؛ فبثلاثة أشيَاء: أحدها: تدبُّر القُرآن؛ والثَّاني: تدبُّر الآيات الَّتي يُحدثُها الله في الأنفُس والآفَاق الَّتي تبيِّن أنَّه حقٌّ، والثَّالث: العَمل بمُوجب العِلم».

[«مجموع الفتاوى» (330/3 ـ 331)]

■ ■ ■



بريد القراء

ورد إلينا عن طريق البريد رسالة مفعَمة بعبارات الحبِّ والتَّأييد للأخ المكرَّم ناصر بوساحة ـ حفظه الله تعالى ـ من مدينة الجلفَة، وحمَّلها ثلاثة أبيات شعريَّة وطلب نشرها، وهاهي كما جاءت تلبيةً لرغبته:

يا طالبَ العلم هنيئًا لكَ بالعلم
ما فازَ غيرُك بالخَير والنِّعم
أضحَت كلُّ الخلائقِ قَد اغتبطَت
واستَغفرت لكَ الحيتَان في اليَم
فسابقْ إلى علم والزَم به
إنَّ العلمَ خيرُ الذُّخر والهمَم

▪ ▪ ▪

كما وردت إلينا رسالة من الأخ العزيز أحمد مرزوقي ـ سدَّده الله ـ من مدينة الرديف بالجنوب التُّونسي، يشكو فيها من انتشار الطُّرقيَّة والبدع والجَهل بأمور الدِّين في ضاحيتهم؛ نسأل اللهَ أن ينصر دينَه وكتابَه وسنَّةَ نبيِّه ﷺ وعبادَه الصَّالحين.

▪ ▪ ▪

ونشكر الأخ الفاضل عبد الرَّحمن بلهاشمي ـ وفَّقه الله تعالى ـ على مراسلته لنا عن طريق البريد الإلكتروني ممَّا يدلُّ على اهتمامه وعنايته بالمجلَّة، وبإصدارات دار الفضيلة، فجزاه الله خيرًا.

▪ ▪ ▪

وللأخ المفضال بلاح بشير ـ بارك الله فيه ـ الشُّكر الجزيل على اهتمامه بشأن المسلمين، واغتمامه لما يحصل لإخواننا في «ميانمار» من تذبيح وتعذيب وتقتيل واغتصاب، ممَّا دفعه إلى كتابة مقالة بعنوان: «مأساة ميانمار»، وإنَّنا مثله تتفطَّر قلوبنا لما نسمعه من أخبارهم المفجعة، ووقائعهم المؤلمة؛ فنسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يفرِّج كربهم ويكبتَ عدوَّهم، إنَّه عزيز قدير.

▪ ▪ ▪

كما نتوجَّه بكثير من الشُّكر إلى الأخ الودود حمَّار عبد الكريم ـ وفَّقه الله ـ من المدينة الجديدة بتيزي وزو على جمعه لمجموعة من الأحاديث الَّتي تجري على ألسنة كثير من العامَّة وبعض الخاصَّة من الخطباء وغيرهم، وهي ليسَت بأحاديث ثابتة عن النَّبيِّ ﷺ، بل هي مكذوبة وموضوعة عنه ﷺ، مثل: «اطلبوا العلم ولو بالصِّين»، و«النَّظافة من الإيمان» وغيرهما، فجزاه الله خيرًا على حرصه على السُّنَّة.

▪ ▪ ▪

وأمَّا الأخ المفضال يوسف صغور ـ أيَّده الله ـ وهو إمام أستاذ بمدينة برج بوعريريج، فجزاه الله خيرًا على ثنائه على المجلَّة بجميع أركانها في قصيدَة لامية جادَت بها قريحتُه، أسماها: «الثَّناء الفوَّاح على مجلَّة الإصلاح» افتتحها بقوله:

اقرأ معي الإصلاح معْ إقبَال
تلك المجلَّة شعلة الأجيال
فيها مقالاتٌ حسانٌ لفظُها
فيها الفوائدُ سهلةُ النَّوال

واختتمها بقوله:

و(فوائد ونوادر) من (واحة
الإصلاح) معْ دُرَر منَ الأقوال
و(بريدُ قرَّاءٍ) لأجل تواصل
مع كلِّ ذي حرص سليم الحال
فجزاهم الله الكريم بفضله
خير الجَزاء بهذه الأعمال
فمجلَّة (الإصلاح) فَخر بلادنا
اقرأ معي (الإصلاح) معْ إقبال

▪ ▪ ▪